

ملء السلة من ثمر الصحافة



تأليف
عبد العزيز بن محمد الدخوي

الجزء الثالث
الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ

ملء السلة من ثمر المجلة

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الثالث

الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ

عبدالعزیز بن عبد اللہ الخویطر، ۱۴۲۷ھ

فہرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخویطر ، عبدالعزیز بن عبد اللہ

ملء السلة من ثمر المجلة / عبدالعزیز بن عبد اللہ الخویطر.

الریاض ، ۱۴۲۷ھ

۳۷۲ ص ، ۵ ، ۱۴ × ۲۱ سم

ردمك : ۶-۷۵۰-۵۲-۹۹۶۰

۱- المقالات العربية - السعودية ۲- الأدب العربي - مقالات

ومحاضرات أ. العنوان

دیوی ۰۸۱ ۱۴۲۷/۲۶۷۹

رقم الإيداع : ۱۴۲۷/۲۶۷۹

ردمك : ۶-۷۵۰-۵۲-۹۹۶۰



مقدمة

هذا هو الجزء الثالث من أجزاء كتابي: ملء السلة من ثمر المجلة، والمجلة هنا هي «المجلة العربية» وكانت المقالات تنشر فيها تباعاً، كل شهر مقالة، ويبدأ هذا الجزء من شهر صفر عام ١٤٢٣هـ (أبريل / يولييه ٢٠٠٢م)، وينتهي بشهر ربيع الآخر عام: ١٤٢٧هـ الموافق (مايو: ٢٠٠٦م).

والهدف من كل مقالة هو الهدف من كل مقالة وردت في الجزء الأول والثاني من «ملء السلة من ثمر المجلة». والمقالات سياحة في كتب التراث. والتمتع بالسير في رياضها، والنظر ببهجة إلى ما فيها من زهور وورود وثمار، وطلح باسق، وخضرة زاهية، فإذا ما

استوقفتني زهرة، وتسمر نظري عند وردة،
وجمجم ريتي عند ثمرة، وشدتني طلحة
عملاقة، أو خضرة خلافة، وقفت عندها طويلاً
أمتع السمع والبصر والنفس والذوق بما فيها من
عبق، وأحياناً أشعر أن عليّ للقارئ حق أن
يشاركني هذه المتعة، فأقتطف له زهرة أو وردة
أو ثمرة ولكن يستعصي عليّ إتحافه بحفيف
النسيم يمر بالدوح والطلح، أو الخضرة الزاهية
التي أملأ النفس مما فيها من بهجة، وأنوب عنه
في هذه المتعة.

هذه الدرر المخبأة في طيات الكتب القديمة،
بعضها رغم مرور الزمن عليه، وتراكم الغبار
والصدأ إلا أن بريقها ينادي القارئ الجاد
بصوت عال: أن التفت إليّ فإن فيّ فائدة عظيمة
سوف تفاجئ الجيل الجديد، ومن منا لا يتصور

أن الدرر قد تتخبأ في هذه المصادر المهجورة!!
أحاول، عندما اختار نصاً، أن أبرزه بثوبه
القشيب الذي أراده له قائلة أو فاعله، واستخرج
منه الكنوز المخبأة التي قد لا تظهر للقارئ لأول
وهلة، ولكن نصاعتها ووضوحها تبرز مع
التمعن والتبصر والتدبر، اجتهد في هذا أن
أعطي كل نص حقه، ولكنني أشعر أن غيري ربما
اكتشف ما لم أكتشفه، وربما أوحى إليه النص بما
لم يوح به لي، بتأثير تعليمه وتربيته، والبيئة التي
عاش فيها، والمجتمع الذي نما فيه.

أحاول أحياناً أن أهيء النص للمقارنة بين
النص القديم ونص جديد، فتظهر هذه المقارنة ما
يدهش ويعجب، وتجعل المرء يحتار هل اللاحق
أخذ من السابق أو أن القدم وطئت على أثر القدم
الأولى فتطابقت آثارهما، وتشابهت البصمات.

من الأهداف التي تشجعني على الاستمرار في هذا السبيل أن النص القصير قد يوحى للقارئ بمتابعة هذا الخط الذي أمسك بطرفه الآن، ولهذا حرصت على أن أذكر المصدر ليرجع إليه من يريد أن يدخل غِبةَ النهر، ولا يقف عند شاطئه، وقد لمست من بعض القراء ما أكد فائدة هذا النهج، وبعضهم ألف لنفسه مكتبة من هذه المراجع أصبحت مسقط اعتزاز، ومجال فخره.

من طبيعة اختيار النصوص، بجانب إعجابي بها، التنوع، ولمس جوانب مختلفة من الحياة، فهي تلمس جوانب عديدة من طلب الرزق، والسعي في هذه الحياة، وما يدور في المجتمعات، وما هي عليه طبيعة البشر، وصلة بعضهم ببعض، وما بين الفئات من محبة أو عدا، تحدث أحياناً بين أصحاب المهن، وما يؤلف من الحاضرة عن البادية وما يلصق بدولة

سالفة من دولة لاحقة. وكلها في الحقيقة صور
لا تخرج عما عليه البشر سواء في ذلك الزمن
أو هذا الزمن.

كل مقالة من هذه المقالات تتحدث عن نفسها،
وعن الهدف منها، وما ترمي إليه، وما أوجب
وجودها، سواء كانت من حديث المجالس في
عصور مضت، أو وصفاً لعمل حدث.

أرجو أن يكون فيها النفع وأن تكسب قراءاً
يجدون في قراءتها المتعة والفائدة. إنه جواد
كريم.

في هذا الجزء كما يرى القارئ الكريم كل
المقالات نشرت في المجلة العربية ما عدا مقالتين
كانتا قد نشرتا في مجلة الفيصل. وقد توقف
النشر في مجلة الفيصل واقتصر النشر على
المجلة العربية.

الكرامة وثمنها (١)

الكرامة صفة تلابس الإنسان ليوصف بحسن الخلق إذا توافرت له، فيوصف من اتصف في بعض المواقف بها، بأنه صاحب عزة، وبأنه أبي. ومن عنده كرامة رفعته هذه الكرامة عن مزالق الرذائل، ومساقط الدناءة، لأنها تحرك عنده الغيرة على سمعته، فيتجنب تعريضها لأي خدش أو إساءة.

هذا عنده كرامة، فلا يقبل من نفسه أن تمشي إلى الخطأ، وهو يعلم أنه خطأ، ولا يرضى أن يتحدث الناس عنه بما يجرح كرامته أو بما يمس سمعته، أو يشوه في المجتمع صورته، وهذا عنده

(١) نشرت في مجلة الفيصل، العدد: ٣٠٨، صفر ١٤٢٣هـ/ أبريل-يوليو ٢٠٠٢م.

كرامة، فلا يقبل الضيم، ولا يصبر على هضم
حق من حقوقه، بما يجرى الناس عليه، ولا يقبل
ما قد يصفه به الناس من أنه حائط قصير سهل
على أي إنسان أن يقفز فوقه، دون أن ينال عقاباً
على ذلك، وهذا عنده كرامة، فلا يغضي عن
خطأ رآه يقع في مجتمعه على ضعيف، لا
يستطيع أن يرد الأذى يصب عليه، فلا يرضى
إلا أن يأخذ على يد القوي المخطئ لمن وقع عليه
الخطأ، ولم يستطع رده.

فما دامت الكرامة قنديلاً مضيئاً، فالسير في
ضوئه، والاهتداء بإشعاعه، أمر يستحق العناء،
وما قد يأتي من أذى في سبيل التمسك به،
وإيفائه حقه، وعلى هذا فقد يكون الثمن حياة
الإنسان، كما عرف عن قائدين تقدما في صف
واحد، لمقاتلة خصم تبين أن النصر سوف يكون

في جانبه، لأن الأسباب كانت في جانبه،
وبعضها كان آتياً من الطقس، وطبيعة الوقت،
وبعضها يعود إلى الاستعداد ونوع العدة
والسلاح، مما لم يحسب حسابه هذان القائدان،
ففي ضوء ما تبين وجد أحد القائدين أن من
الحكمة أن يكتفيا بما قاما به حتى الآن من قتال.
ولكن القائد الثاني لم ير هذا الرأي ورآها
فرصة للمز زميله، ومن باب التحريض أيضاً،
قال له: يبدو أنك جبت، فتحركت الكرامة عند
الثاني، ولم يذكر غيرها، ونسي الخطر المحقق
من دخول المعركة القادمة، فرد بما يحفظ كرامته
متبعاً القول بأنه لم يجبن، بأن اندفع على الفور
إلى الاستعداد لخوض المعركة القادمة، وسرعان
ما وقعت وقتل فيها وقتل كثير من أبناء وطنه،
وأسرته، ولم يبق في بلده بيت إلا وفيه جريح،

أو نواح على قتيل.

غيرة هذا القائد على كرامته جعلته يمشي
بقدمين ثابتتين إلى الموت، رغم علمه بأن الكلمة
التي قالها زميله القائد الثاني هي استنهاض له،
لأنه يعرف شجاعته، وإقدامه، ولكنه خشي أن
تسري الكلمة، فتثبت في أذهان من لا يعرفونه.
وهذه الكلمة الحادة نجحت في استخراج
الكرامة من جرابها، وفعلت فعلها، وأصبحت
سلاحاً باتراً تغلغل حتى جاء بالمطلوب.

ومات القائد، وبقيت سمعته، تحميها كرامته،
لامعة كالشهاب، مضيئة كالنجم، تتخلل
العصور، والأزمان، بقيت تبرق بريق الذهب،
وتشع إشعاع الجواهر، وبقي صاحبها قدوة في
الشجاعة، والمحافظة على العزة والكرامة، لقد
انكسر الإناء بموت الرجل القائد، وبقي محتواه

محفوظاً بالاحترام والتبجيل .

ومما حوته كتب التراث من قصص الأمم
السالفة، مما يصور الكرامة، والمحافظة على
المستوى الخلقي، الذي عرف به صاحب الأمر،
مما أوصله إلى مجلس ملك الهند؛ يقول
صاحب كتاب عيون الأخبار:

«قرأت في كتاب للهند: أنه أهدي لملك الهند
ثياب وحلي، فدعا بامرأتين له، وخير أحظاهما
عنده بين اللباس والحلية، وكان وزيره حاضراً،
فنظرت المرأة إليه كالمستشيرة له، فغمزها
باللباس، تَغْضِيناً بعينه، ولحظه الملك، فاختارت
الحلية، لئلا يفطن للغمزة.

ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه لئلا تقر
تلك في نفس الملك، وليظن أنها عادة، أو
خلقة، وصار اللباس للأخرى؛ فلما حضرت

الملك الوفاة، قال لولده:
«تَوَصَّ بِالْوَزِيرِ خَيْرًا، فَإِنَّهُ اعْتَذَرَ مِنْ شَيْءٍ
يَسِيرٍ، أَرْبَعِينَ سَنَةً».
(عيون الأخبار: ١ / ٧٧)

ولي الأمر والقضاء^(١)

القضاء أمانة ثقيلة، وعمل شاق، ولا يقدر على أداء حقه إلا من وفقه الله، وسدد خطاه، وكان من ذوي العزم، والحزم، والعلم، والذكاء، والمعرفة بأحوال الناس، ونفوسهم، ومهنتهم، وطبائعهم، وأسنانهم، ودرجة نضجهم، وظروف مجتمعهم، وأحواله.

ولأن بيد القاضي حياة الناس، وسلامتهم، وأعراضهم، وأموالهم، وأسباب شقائهم، وسعادتهم، بإذن الله تعالى، فهو يتوخى الحق فيما يحكم به، والصالح فيما يجمع فيه ذلك، فعمله، على هذا، خطير، ومهمته صعبة. وقليل

(١) نشرت في مجلة الفيصل، العدد: ٢٩٨، ربيع الآخر

١٤٢٢هـ/ يوليو ٢٠٠٢م.

من القضاة، في هذا الزمن القديم، يقبل منصب القضاء، أو يقدم عليه، وكانوا يقاومون ذلك، تخرجاً، وبعداً عن مزالقي الإثم، ومدارج الخطأ، والتعرض لغضب الخصوم، فكل قضية فيها محكوم له، ومحكوم عليه، وراض وساخط، ومقتنع ورافض.

والقاضي يخرج بعض الخصوم عن طبعه، بسوء تصرفهم، وعنتهم وجهلهم، مهما كان القاضي عازماً على التحمل ومهما كان مدركاً للصبر وتحمل السفه. كان هناك قاض كناه الناس بالقاضي النطاح، لأنه عندما يستشاط غضبه ينطح المتقاضي المزعج، وبلغ الخليفة أمره، فخاطبه في هذا، فأبان للخليفة أنه يفعل ذلك عندما لا يبقى في القوس منزع، وعندما تصل الروح الحلقوم، وعندما لا يبقى وسيلة إلا

النطح، وهو أقرب عقاب مادي، واقترح عندما لم ير من الخليفة اقتناعاً، أن يأتي الخليفة، ويجلس في مكان في المحكمة، خلف ستار، لا يعلم عنه، وسيرى من بعض المتقاضين عجباً، فأعجب هذا الرأي الخليفة، وجاء وقعد خلف الستار، وجاء متقاضيان، أحدهما من عامة الناس، والآخر من عليّة القوم. فأراد هذا أن يجلس بجانب القاضي، فقال له القاضي:

إجلس بجانب خصمك، فالناس في مجلس القضاء سواء. فقال الرجل: ولكنني من عليّة القوم، ولا أساوى بهذا. ولكن القاضي أجبره على أن يجلس بجانب خصمه، وأخذ القاضي يستنطقهما بحججهما، وكلما طلب القاضي من الذي من عليّة القوم شيئاً، ذكره بأنه من عليّة القوم، وأنه لا يطلب منه ما يطلب من هذا الذي

من الرعاع، فهو لا يريد أن تطلب منه بينه، لأن شرفه يمنع من هذا، وهو لا يريد أن يحلف، لأن هذا لا يليق بمقامه، وفيه اتهام مغلف بعدم الثقة فيه، وهو من علية القوم.

كل هذا والقاضي متحمل لصفافة هذا الرجل، ويسايره ويلاينه، فاغتاظ الخليفة، ونخز جنب القاضي من وراء الستار وقال له: ويحك! إن لم تنطحه نطحته أنا.

والناس في حياتهم، وصلة بعضهم ببعض، يحدث بينهم اختلاف ونزاع، وخصومة وعداء، ولا بد من حكم يضع كلا من المتنازعين على جادة الصواب، وإلا تفاقم الأمر، ووصل إلى درجة قد تهدد الحياة بينهما، وتأتي للمجتمع بفتنة هو في غنى عنها، وإن لم يحدث هذا فقد تضيع حقوق، وتنتهك أعراض، ويأكل القوي

الضعيف، ويحكم المجتمع حكم غاب، ويصبح المجتمع مجتمع حيوانات متوحشة، تقضي ذات القرون على الجماء.

والحكام خير من يدرك أهمية القضاء والقضاة، لأنهم يجدون فيهم عضداً، يشد أزهرهم على سلامة الحكم، ويساعدهم على حسن سير أموره، والأخذ بأسباب ازدهاره، وبقائه، فعمل القاضي لا بد من القيام به، فإن لم يقم به قاض وقع العبء على الحاكم، وقد لا يكون الحاكم مهياً للقضاء لعدم تضلعه بمتطلباته، من فقه، وعلم بأحوال الناس الدقيقة، وإن كان عنده ذلك، فليس عنده الوقت، وتحمل عناء المقاضاة، خاصة إذا كان حكمه يشمل أراض شاسعة الأرجاء، متباعدة الأطراف، صعبة التضاريس.

لهذا يحرص الحاكم على ان ينصب قضاة،
ينظرون في أمور الناس، ويحاول أن يجد
الكفيء ، الذي يريحه بتحرير العدل
والإنصاف، لتكون ثمرة ذلك رضى عاماً بين
الناس، يأتي بالهدوء والطمأنينة للمجتمع، من
خلال الأداء الجيد ممن هو أهل أن يأتي على يده
الخير.

والحكام يستشيرون، ويبحثون، وينقبون،
ويدققون ليطمئنوا إلى من يختارونه، ويضعون
فيه ثقتهم، وتقابلهم مواقف صعبة عندما
يرفض، من اختيار، أن يقبل المنصب.

وقد اضطر بعض الحكام إلى إجبار الكفيء
على القيام بالعمل، لأن المصلحة تقتضي ذلك،
وقد سجلت طرائف من الحيل في رفض القضاة
للمنصب، بعضها نجح، وبعضها أخفق.

وصفة القاضي المطلوب، والحكم الناضج، معروفة لدى الحكام، والصعوبة تأتي في العثور على من تتوافر فيه الصفات اللازمة لهذا المنصب الرفيع. وهنا مثل يصور موقفاً لأحد الحكام، يبين ما كان يدور في ذهنه، وما يتطلع إليه في القاضي من خلال، التي تعد أساساً لازماً لعمله، وأسلوب الجدل الذي أجبر به القاضي على تولي المنصب، ويبين موقف القاضي، ومواقفته ومقاومته للعرض، وتخرجه من الإقدام على القبول، وقد تبين أنه أهل لما أظهر أنه لم يكن أهلاً له:

احضر الرشيد رجلاً، ليوليه القضاء، فقال له:

إنني لا أحسن القضاء، ولا أنا فقيه.

قال الرشيد: فيك ثلاث خلال:

لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة،

ولك حلم، يمينك من العجلة، ومن لم يعجل
قل خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمرك، ومن
شاور كثر صوابه، وأما الفقه فسينضم إليك من
تتفقه منه.

فولي، فما وجدوا فيه مطعناً.

(عيون الأخبار: ١ / ٧١)

الرشاقة وخفة البدن^(١)

في زمننا هذا دعوة ملحة للرشاقة، وخفة البدن، لأن الناس أدركوا فائدة ذلك؛ في عصرنا هذا: عصر النور، وعمق المعرفة، خلافاً لما كانت عليه النظرة في مجتمعاتنا التي كانت تمتدح السمينة، وتدعو إليها، وقيلت في ذلك أشعار غزلية، ترسم صوراً بهيجة للنساء، وهن يرفلن في أديم من الشحم واللحم، ينوء بها الجسم، وتئن الأرجل والمفاصل منه.

واليوم وقد آمن المتنورون بفائدة الرشاقة، ونحافة الجسم، انصرف الداعون لذلك، والمستجيبون لهذه الدعوة، إلى الوسائل التي

(١) نشرت في «المجلة العربية» بالعدد (٢٩٠) السنة السادسة، ربيع الأول ١٤٢٢هـ الموافق: يونيه ٢٠٠١م.

يمكن أن تساعد على تحقيق ذلك، وقد تعددت الآراء، واتخذت سبلاً مختلفة، قد يتعارض بعضها مع بعض، وقد ينقض بعضها بعضاً، وقد ينسخ ما يدعى إليه اليوم ما كان يدعى إليه بالأمس، حتى أصبح بعض من يقرأ ما يكتب، أو يقال، ذهنه في دوامة، خاصة عندما يتحدث المتحدث عن الغذاء وأنواعه، وعما يجب أن يؤخذ منه، وما يجب أن يتعد عنه، وتتلازم الدعوة للرشاقة مع تجنب أسباب مراعاة الصحة، وهذه لها أبواب مختلفة، تزن الكميات والأنواع، بحيث لا يطغى طلب الرشاقة على مقومات الصحة.

والداعون لهذا الجانب الصحي يتفقون في الأمور الرئيسة، ويختلفون في الفروع، فكل له طريقته، وله نظره، وما قد يقال اليوم أنه يسبب

تراكم الشحوم في الأوردة، قد يأتي غداً من يقول بخلاف ذلك، ومن يقول بتجنب النشويات، قد يعارضه من يرى عدم مقاطعتها، لأن لها فوائد لها لبناء العضلات، وتنظيف الأمعاء، ومن يطلب التحرز من السكريات يرى غيره أهميتها لتنشيط بعض الغدد المهمة مثل الكبد وغيرها.

وجميع من يتحدث عن تخفيف الوزن، والتحذير من السمنة، يرى أهمية الرياضة، مشياً، أو تحايلاً على المشي بالسباحة أو الاستفادة من الأجهزة، مثل الدراجة، أو سير الحركة، وقد يأتي ما يستجد على ما هو جديد اليوم، وما تدفعه وسائل الإعلام من أجهزة جديدة، عرضها يغري، وإن كانت آفة من يستعملها الملل، ما لم يحتل على التغلب عليه بما يغلبه.

وقد يظن أن هذه الدعوة للرشاقة حديثة، أو لم يعرفها آباؤنا وأجدادنا، وهم من لم يترك حقلاً فيه مجال للعقل إلا طرقوه خير طرق، وجاءوا فيه بما يفتخر به، لأنه مليء بالصدق، وقول الحقيقة الناصعة، والحكمة البليغة. وقد تطرقوا إلى ما نحن بصدد، قال أحدهم وقد أفاد وأجاد: «في قلة الطعام فوائد، منها: قلة الحدث، ودوام الطهارة، وخفة العبادة، وصفاء القلب، وتيقظ الفطنة، وتوقد القريحة، وجودة الحكمة، ورسوخ ما حفظ من العلم، وخفة النفس، وجهاد العدو، وذهاب التخمة، وغنى عن الأدوية، وزيادة نور البصر، وتقوية الكبد، وطرده الكسل، وتنقية الجسد».

(الكنز المدفون والفلك المشحون) (١٩٦)

ما لهذا إلا هذا (١)

التعليم أمر قديم، والصلة بين المعلم وطالب العلم معروفة، وفي جوانبها المختلفة، وتستحق أن يُتدبر أمرها، وأن يُوقف عند بعضها. وقوف المتأمل المتبصر، ويستحق بعضها أن يُسجل، ويُروى، ليتخلل الزمن بأهميته، أو طرافته، أو غرابته، أو فائدته.

وظلاب العلم يختلف بعضهم عن بعض، فبينهم الناضج مبكراً، وبعضهم من لم يصل إلى هذه الدرجة إلا بعد زمن، ومن بين الذين لم ينضجوا أدباً ورزاقاً من يأتي بتصرفات تلفت النظر، وتدعو إلى الدهشة، لما فيها من عبث

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٢٩١، السنة: ٢٦، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ/ يوليو ٢٠٠١م.

الطفولة، والخبث الطريف أحياناً، الذي يلازمه
لمرحلة محدودة حتى ينضج، وهذه السمة وإن
لازمت بعضهم فإن آخرين يجللهم أدب العلم
مبكراً، فيصبحوا من العقل والرزانة بمكان، ويبقوا
مثبتين لمجالس العلم، خلافاً لأولئك الذين حتى
بعد أن يكبروا، وينضجوا، تبقى فيهم بقية من
عبث الصغر، تطل بين آن وآخر، تغريهم بأن لا
يتركوها تمرّ دون أن يوفوها حقها، وكأن لها
بذوراً لم تنقطع من دمهم، وبقيت متربصة تنتظر
أن يبللها مطر الفرصة حتى تبرز من تربتها، ولهذا
عندما يصبحون المحور في حلقات تدريسهم
يفاجئون ببعض الخبث من تلاميذهم كما كانوا
يفعلون مع مدرسيهم، وكأن الأمر اقتصاص
اقتضاه العدل، فكما تدين تدان، وكما تكيل يُكال
لك، والبادئ أظلم.

ويأتي المكر ومظهر الخبث في ثوب سؤال أو
تساؤل، مبنياً على تظاهر بالجهل، وطلب
المعرفة، بنعمة استحياء، استجداء لصحة العلم،
والحرص عليها، وقد دون بعض الكتاب طرفاً
من هذه الأخبار طريفة، أصبحت أدباً قائماً بذاته
لما فيها من تسلسل مدهش، مع اختلاف في
الحوادث والوقائع، واتفاق في المنهج،
والأسلوب، مما أوجد هذا التراكم من القصص
والروايات.

ومن القصص التي تروى ببهجة يتلوها
استغفار، القصة التي تروي أن تلميذاً تسلل إلى
نفسه الخبث، وسأل شيخه في حلقة درس في
أحد المساجد: هل يولد مولود للشيخ الذي بلغ
الثمانين، ولم يتنبه الشيخ المسؤول أن بجواره
شيخاً جليلاً يدرس في حلقة مجاورة له، فرد

بقوله مقابلاً الخبث بخبث: نعم إذا كان له جار في سن الثلاثين. وهكذا أوقع التلميذ شيخه في حفرة لم يخرج منه إلا أعذار متلاحقة، وأيمان مغلفة أنه لم يكن صادقاً في الجواب، ولكنه أراد أن يقابل العبث بعبث، حتى يقطع على تلميذه مواصلة ذيول السؤال، وأنه لم يتنبه للفخ المنصوب له. واعتذار مثل هذا لا ينفع معه أغلظ الأيمان، ولعل العدل لهذا الشيخ أوجب أن يكون القصاص منه لشيخه القديم مضاعفاً مع مرور الزمن.

هذا الرد قول طوقه الخبث - كما رأينا - وأحاط به العبث من شباب سوف يكونون شيوخاً، ومن تلاميذ سوف يكونون مدرسين، وهم يكيدون اليوم، وسيكاد لهم غداً، وسوف تتوالى الحلقات في سلسلة لا يعلم متى كان

أولها ومتى سوف يكون آخرها.

هذا عبث بالقول فلنقارنه بعبث الفعل من
تلاميذ مع شيخهم، ونرى أن الروح هي الروح،
والنية هي النية، والقصد هو القصد، والنتيجة
هي النتيجة، فالروح وراءها المرح، والقصد
الحصول على المطلوب، والنتيجة حصد ما زرع،
ويتمثل الفعل في القصة الآتية:

«قال أبو بكر بن عياش:

كنا نسمي الأعمش سيد المحدثين، وكنا نحيؤه
آخر من يقصده، لأننا نطيل عنده، وكان لايزال
يطعمنا الشيء مما يحضره، ويسأل، ويقول:

بمن مررتم اليوم؟ وعمن أخذتم؟

- فنسمي له الواحد، فيشير بيده: أي جيد.

ونسمي له آخر، فيومي بأصبعه: أي صالح.

ونسمي آخر، فيقول: طير طيار، ونسمي آخر

فيقول: طبل مخرق.

فقال بعضنا لبعض ذات يوم:

لا يُخرج الأعمش إلينا شيئاً إلا أكلناه كله.

فأخرج إلينا خواناً عليه خبز وتمر، فأكلناه، ثم

عاد فأخرج قتائب مما يسرب انسياباً، فأكلناه، ثم

عاد فأخرج كرائاً، فأكلناه، ثم عاد فأخرج إجانة

فيها كسب ونوى، فقال:

أما طعام العيال فأكلتموه، وهذا علف العنز

فدونكم».

(التذكرة لابن حمدون: ٩ / ١٣١ - ١٣٢).

خبث مبرر، يقابله كرم مقصود، ظنوا أنهم

خدعوا شيخهم، ولكنه أثبت أن في القفطان

شيخاً متسامحاً، ولعله رأى فيهم شبابه، وما قد

يكون عرفه في صغره مما يماثل هذا أو يزيد.

«الداعي»^(١)

مجلة «الداعي» إشعاع إسلامي ساطع صاف، هدفه النفع، وغايته الفائدة، ووعاؤه الإيمان العميق، وفحواه خدمة الإسلام، وجلاء صورته، والدفاع عنه، وإظهاره بالمظهر الحقيقي، والصورة المنيرة التي أرادها الله له، وأنه دين يهدي إلى التي هي أقوم، وإلى صراط الله المستقيم، وتوجيه المسلم إلى ما يسعده دنياً وديناً.

هذه المجلة، بحق، ثغر جهاد، سلت أدواتها سيوفاً تحمي الحق، وتزهق الباطل، لدى كتابها يقظة أمام المكائد، ونباهة تجاه الدسائس، وعزم

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٢٩٣، السنة: ٢٦، جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ الموافق سبتمبر.

لتفتيت الفتن، والوقوف في وجوه الاستفزاز.
تقف ديدباناً أمام ما يأتي أحياناً من أذى لعقيدة
المؤمن، أو مكان عبادته، من بعض الجهلة
والمتعصبين من أهل ديانات أخرى. وسائل
دفاعها هادئة، ولكنها فعالة، ومتحمسة، ولكنها
حضارية، وصوتها عال، ولكنه أبلغ الحجة،
سليم المنطق، نتاج عقل واع، وتفكير سليم. تنبه
إلى ما يقتضيه العدل والخلق، والحرية الدينية،
مقدرةً منها على الوقوف في الصف العالمي،
بعيداً عن النظرات الضيقة، وتجرداً من التحيز،
والسير الأعمى.

عمرها اليوم خمسة وعشرون عاماً، وكل سنة
من سنوات عمرها، الذي نرجو أن يكون مديداً،
تزيد قوة وثباتاً، ومع كل عدد في كل شهر تزيد
نضجاً، وعمقاً في التجربة، لأن من يقومون

عليها حسنوا النية، والجهد منهم مبذول، والعزم متوطد، والطريق الذي يسلكونه مستقيم، والنهج أبلج، ولهذا كلمتهم تجد مستقرها في القلب، وطريقها إلى التنفيذ. وتأتي هذه المجلة تحت مظلة جامعة عريقة، نذرت نفسها لهدف نبيل، هدفها تنشئة جيل هم عدة اليوم، وأمل المستقبل، في حمل راية الدين والمعرفة، وخوض معترك الحياة بجدارة وإقدام، ليكون له دوره الوافي في صفوف أمته الإسلامية، وليمثلها تمثيلاً يرفع الرأس، ويعلي الشأن، وليكون هؤلاء الخريجون منارات هدى وتقى، ومنابر عالية تسمع منها دعوة الحق والعدل، في هذا العالم المتلاطم الأمواج بالأديان والمبادئ، وما تتمخض عنه التطورات الحديثة، وما تبرزه من تحد، وليكونوا قوة تدعو إلى خير العالم بما

تبدييه من قدوة حسنة، وأهداف نبيلة.
وقد اختطت هذه المجلة لنفسها نهجاً حسناً،
يجذب القارئ إليها في الجوهر والصورة،
فأحسنت اختيار المقال، ونوعته، وتلمست
خدمته لأغراض إسلامية متعددة، تمس العمل
والروح، والدنيا والآخرة، تنشئ وتقتبس،
وتختار، كل هذا بدقة، وحسن التماس. أما ما
يخص الصورة فجذاب، فالحجم مثالي،
والورق ممتاز، والإخراج بديع، والحرف كبير
جميل، ونسقه يشدّ القارئ ويجذبه، والعرض
حسن، والمظهر مبهج، يريح العين والنفس.
والاعتناء بهذه النواحي يدل على حرص
القائمين عليها في السعي المتناهي لنفع القارئ
وراحته، مما يؤكد أهميته لهم، وتقديرهم له،
وحرصهم على بقاءه قارئاً مُدِماً. وليس هناك

أشد على القارئ من أن يشعر أنه على الهامش، وأن أصحاب المطبوعة لا يهتمهم أمره ولا رضاه. وهو أمر -للأسف- متواتر في بعض المطبوعات، مما يشعر أن هناك فجوة بين المسؤولين عن التحرير والقارئ، حتى أن كاتب المقال أحياناً يأنف من قراءة مقالته في الصحيفة، لصغر حرفه، ومزاحمة الإعلانات له، أو إحاطة بعض مقالات البعث بمقاله.

الجامعة الإسلامية: دار العلوم، في مدينة ديوبند-يوبي، في الهند، هي التي تصدر مجلة: «الداعي»، بانتظام كل شهر، تحت إشراف رئيس الجامعة نفسه: فضيلة الشيخ مرغوب الرحمن، ويرأس تحريرها رجل نذر نفسه لها ولمستواها، ووقف وقته على رعايتها، وعلى ما يجعلها مُرحباً بها، أستاذ الأدب العربي في الجامعة،

الأستاذ نور عالم خليل الأميني، وهو رجل
نشط متابع، محافظ على النهج المخطط للمجلة،
حريص على علو مستواها.

شعار المجلة الذي طرزت به أول صفحة من
صفحاتها المنيرة هو:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة
الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل:
١٢٥).

ونعم الدعوة، ونعم الجدل، ونعم المحافظة
على هذا النهج. وفقهم الله ونفع بهم.

من يصدق هذا؟^(١)

معاوية بن أبي سفيان، أول خليفة أموي، كان غرضاً للسهام، وهدفاً للنبال، غرف له الراوون من ماء أجاج، وكالوا له كيلاً مجحفاً، ورموه بما ليس فيه، وجحدوه ما كان يتصف به من فضل. أُلِّفَتْ عنه القصص المغرضة، ونمّقت الروايات الكاذبة، وحبكت الحكايات التي لم ينزل بها الله من سلطان. أصبح مشجباً قريباً يعلق عليه ما يدور بين الناس من صفة نابية، انتقاماً أو حقداً أو جهلاً أو تسلية أو تندرأ. يُؤْتَى بالقصة المختلقة لبهجة السمر، أو لملء الفراغ، وتزيد أهمية القصة والإقبال عليها إذا ما علقت على

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٢٩٢، السنة: ٢٦، جمادى الأولى ١٤٢٢هـ/ أغسطس ٢٠٠١م.

معاوية، وهي في الحقيقة حدثت لرجل من عامة الناس في المجتمع.

هذا كفة، وكفة أخرى عن معاوية، يكال فيها المدح، ويُغالى في الثناء، وتعرف له الدلاء ماءً زلالاً، وينثر الراوون زهوراً ورياحين، ويؤلفون قصصاً عن صبر معاوية، وعن جلّده، وعن بُعد نظره، وعن سعة صدره، وعن ذكائه ودهائه.

كل من تربّرت في ذهنه قصة، أو أعجبت به طريفة، بحث لها عن مشجب شريف يعلقها عليه، لتروج وتسير، ومعاوية خير مشجب للقصص التي فيها مجابهة للهاشميين، تغلب فيها حجتهم على حجته، وترجح كفتهم على كفته، يخنع أمامهم، ويرضيه، ويساير الصّلف منهم، وتؤلف على معاوية قصص تدافع عنه من محبيه من رعيته، ويُغالى في تصوير ذكائه ودهائه في

التخلص من ألسنة المشاغبين، بإسباغ العطاء
عليهم، دفعاً لشرهم، وتخلصاً من أذاهم.
ويبدو أنه لا يهم ما يقال عنه، أكان معقولاً
مقبولاً، أو مرفوضاً منبوذاً، وإنما المهم أن تملأ
صفحة عن معاوية في جانب من الجوانب التي
عُرف بها، حقاً أو باطلاً، بل ليس هناك بأس من
إلباسه عيوب غيره، ومتابعة ذلك بما يثبت في
أذهان الناس، ويركزه، فلأنه عرف، مما كتب
عن معاوية، أنه سمين، وأن له إلية ضخمة،
انطلق الحديث عن طعامه، والمغالاة في وصف
كثرته وتنوعه، وشره فيه، ولتكمل الصورة
المنفرة عنه لا بد من تعزيد هذا بوصمه بالبخل،
حتى لو جاء الوصف، إفراداً وجملةً، مما يمجّه
الذوق، وتأباه النفس المنصفة والمتعقلة، وجاء بما
يرفضه العقل، ويرفضه الواقع بقدمه. يقص

الرواة القصة تصور معاوية وكأن بطنه حجرة واسعة، يخزن فيها الطعام، ويقذف قذفاً، حتى لو قيل أن هذا الطعام لو وضع أمام جمل أو فيل، لاستوجب السخرية والاستهزاء.

وهذه قصة من القصص المضحكة المؤلمة، لأن فيها استهزاءً بعقل القارئ والسامع:

«روي أنه أصلح لمعاوية بن أبي سفيان عجل مشوي، فأكل معه دستاً من الخبز المسيد، وأربع قراني (القراني خبز يُشوى، ثم يروى سمناً ولبناً وسكراً)، وجدياً حاراً، وجدياً بارداً، سوى الألوان، ووضع بين يديه مئة رطل من الباقلاء الرطب، فأتى عليه».

(التذكرة لابن حمدون: ٩/ ٩٧)

وقد يقبل هذا القول الكاذب، وما فيه من تحجّج، مستطرفو القصص الخيالية، ويجدون فيه تسلية،

ولا يلتفتون إلى فحصه وتمحيصه، ونبذه، ولكن ابن حمدون في تذكرته عندما مرّ به اتهم معاوية بالبخل ذعر، ورد القول، ولم يقبل ما فيه من هراء، عرف منبعه ومصبه، وقال تجاه ما وصف به معاوية من البخل وهو كريم، وما اتهم به من عدم الحلم وهو حلیم، وما قيل عن ضعف همته، وهمته قعساء:

«وقد ذكرت عنه أخبار مستهجنة، ألفيتها يخالفها المأثور عن حلمه وهمته، وإن امرأً سمت نفسه إلى مناوأة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وفعاليته على الخلافة، مع تباعد استحقاقه منها، لبعيد أن ييخل على طعام، ويحامي عن أكله، وييذل البذول لرفع الأيدي عنه كما رووا أنه كان يفعل».

(التذكرة لابن حمدون: ٩ / ٩٧).

من أوابد الأصمعي^(١)

الأصمعي شخص ظريف، ورواياته طريفة، وهو يعتمد أن يجري وراء الطرفة، أو لعله لا يدون إلا ما يكون فيه جذب وبهجة، ومحط إعجاب، ومخالفة للمعتاد، ويتوقع الأصمعي، بما يروي، أن يدهش السامع، كما دهش هو نفسه، مما جعله يشعر بوجوب تدوينه، أو روايته، وقيدته بقيد وثيق، لا يقلل من شأنه مرور الزمن، ولا يرخسه تكرار الرواية.

وكان للأصمعي ارتياد للبادية، ورحلات يقتنص دُرره أثناءها، منها ما يختص بمبنى اللغة، ومنها ما يختص بالمعنى؛ همه في ذلك خدمة اللغة،

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٢٩٣، السنة: ٢٦، جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ/ سبتمبر ٢٠٠١م.

ومجتمعها، يسجل في أثناء ذلك الغريب، أو ما
يفسرّ الغريب، أو يجلو الغامض، أو يزيد
المحصول، وجاء من ذلك بكثير مما يعجب،
ويطرب، ومشى الأصمعي، من أجل ذلك، بطرق
مختلفة، وسلك سبلاً متعددة، وضرب جواد
متباينة، وفتح أبواباً مغلقة.

هذا كله جاء بفائدة عظيمة، ولقي قبولاً
حسناً، وصار له وقع مقدر من مجتمعه، ومن
الأدباء، والعلماء، في أجيال لاحقة، وهذا
التلقي الحسن، والقبول المتناهي، المبني على
حسن ما يأتي منه، أغرى أدباء لاحقين أن
ينحلوا أخباراً يعلقونها على مشجبه، وأن ينسبوا
إليه طرائف، جادت بها قرائحهم، لشبهها بما
يأتي منه عادة، فيقولون عنه مالم يقله، ويروون
عنه مالم يأت على لسانه، ثقة بأن هذا الادعاء

لن يكتشف كنهه، وسيتراكم هذا مع ذاك،
ويصبح تراث الأصمعي، اختلط ما لم يقل بما
قال، وأصبح من الصعب التمييز بين النوعين،
والنوع الثالث الذي لم يحدث، ولكن نحله
الأصمعي على نفسه، وما هذا بغريب، فقد كان
هذا ديدن بعض الأدباء مثل الجاحظ، تركب
الفكرة بطريقة متقنة، لتدرج، وتقبل، وتفيد.

أصبح من السهل التعليق على مشاجب عصر
سابق، لتدخل الفكرة ضمن التراث، لأن
للتراث نظرة تقدير واعتبار، وهذا يشجع على
سلوك هذا الطريق المعبد. لهذا يجد القارئ،
غير الفاحص، أنه من الصعب تحديد الفرق بين
ما رواه الأصمعي، مما رآه بعينه، أو سمعه بأذنه،
وبين ما مرّت فكرته بذهنه، فصاغها صياغة
أديب أريب، أو علقت عليه نحلاً وتركيباً، لأن

الملكة عنده، وعند بعض الأدباء أمثاله، ارتقت إلى الحد الذي جعله يتقن صياغة آرائه، في ثياب تماثل الثياب الأصل.

والهدف من الرواية، سواء كانت أصلاً، أو منحولة، هو إصلاح المجتمع في بعض جوانبه، في خلقه، وفي سيره، وفي تواصله، وفي أقواله، وأفكاره، فالهدف نبيل، ولو لم يكن فيه أحياناً إلا الظرف والطرافة، وجلب ابتسامة إعجاب، أو راحة صدر حزين، أو تضميد جروح مكلوم، أو إنعاش ذهن كليل، أو جسم منهك، فمادام الأمر كذلك، فلا لوم، بل شكر مبادر، فالنية الطيبة في جلب خير للإنسان أمر مبارك، وجميل يبقى.

يرد هذا كله، وما هو أكثر منه، إلى ذهني، كلما مرّ بي شيء عن الأصمعي، أو للأصمعي، وآخر ذلك النص الآتي:

«حدثني الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء،
قال: استعمل الحجاج أبي، على بعض أعماله،
فنقم عليه، فتواري أبي عنه، في بادية قومه، وأنا
معه، فبينما أنا في سحر من الأسحار، إذ مرّ
راكب، وهو يقول:

صَبَّرَ النَّفْسَ عِنْدَ كُلِّ مُلَمٍّ
إِنْ فِي الصَّبْرِ حِيلَةُ الْمُحْتَالِ
لَا تَضُقُ بِالْأُمُورِ ذُرْعاً فَقَدْ
تَكْشَفُ غَمًّا وَهِيَ بَغِيرُ احْتِيَالِ
رَبِّهَا تَجْزَعُ النَّفْسُ مِنَ الْأَمِّ
رَلَهُ فَرَجَةٌ كَحُلِّ الْعِقَالِ
قال: فقلت: وما ذاك؟

قال: مات الحجاج.
فوالله، ما أدري بأيهما كنت أشد فرحاً،
أبقول:

«مات الحجاج»، أم بقول: «فرجة».

(بهجة المجالس: ١/ ١٨٣).

مثل هذا الأمر لا يحدث، إن حدث، إلا نادراً
فالقائل قال ما قال، وصادف قوله تطابقاً مع
حال الهارب من الحجاج، وجاء بالفرج،
وجمال الأبيات، وما فيها من حكمة وموعظة،
يشفع لها، سواء كانت تمثل ما قيل إنه حدث،
أو أنها مؤلفة، لأجل الموعظة، ووقعها الحسن،
والنصح، وما يرمي إليه من فائدة، مما قد يكون
هو الهدف الأساس من هذه القصة، اختياراً، أو
تأليفاً.

حيلة ولازمها^(١)

الثقل لم يُسمَّ ثَقِيلاً إلا لأنه حمل لا تطيقه الروح، وثقل الجسم ثقل قد يخففه التعود عليه، وما يَشُدُّ به من عضلات، ومن يُقَوِّى به من أعصاب، وما يُجْنِى من ورائه من فائدة، تخفف ألمه، وتعين على تحمله. أما ثقل الروح فخلافه، فهو يزيد ثقلًا بال تكرار بما لا يحتمل في نهاية الأمر، ويبحث عن وسيلة تقطع دابره، إذ لا أمل في تخفيف الثقل على الروح. وتنوعت الوسائل والحيل في التخلص من هذا الأذى، وتخليص النفس من هذا العبء المضني، مما قد يجعل الحياة أضيق من سم الخياط.

(١) نشرت في «في المجلة العربية»، العدد: ٢٩٤، السنة ٢٦، في رجب ١٤٢٢هـ الموافق أكتوبر ٢٠٠١م.

ومن ابتلاه الله بثقل الروح يصبح شخصاً غير
مرحب به، فهو يبتلي الناس بنفسه، ويرمي ثقله
عليهم، وهو لا يشعر أنه ثقل، بل إن بعضهم
يظن، بسبب المجاملة، أنه أخف على الأرواح
من وزن الريشة. وقد يعرف أنه ثقل على
الناس، فيزيده هذا انتقاماً منهم بالتمادي فيما
أوجب ثقله. وثقل الروح له أسباب، بعضها
يكن في أن صاحبه فرض نفسه على مجتمع
ما فرضاً، أو يأتي في هذا المجتمع بتصرف غير
مقبول، كأن يكون جاهلاً يتعالم، أو مغرماً
بمقاطعة من يتكلم أو يأتي في أوقات ليست
أوقات زيارة، أو أنه ليس من مستوى المجتمعين
علماً وفهماً وثقافة، أو أن له رائحة كريهة، أو
لباساً لا يليق، أو ملازماً لعادة قبيحة.
وأذكر قصة لرجل معاصر، يأتيه أصدقاؤه

للسمر ليلاً، وعلى عادة أهل نجد في ذلك
الزمن، يقدم لهم المضيف القهوة والشاي
والحليب، ويكرر هذا حتى تنتهي السهرة، وهم
وهو من طينة واحدة، ومقام متماثل، فابتلوا
بدخيل فرض نفسه عليهم، وهو ليس من
مقامهم، فاتفق صاحب الدار مع أصحابه على
ألا يترك الباب كالمعتاد مفتوحاً، فأقفله،
وأعلمهم بمكان المفتاح، ولكن الثقل، بعد
ترصد لم يطل، عرف الطريق إلى فتح الباب،
ولأنه وجد الباب مقفلاً، خلاف المعتاد نادى من
أسفل الدَّرَج صاحب الدار، وقال: يافلان، هل
أترك الباب مفتوحاً كالمعتاد أو أقفله.

فقال صاحب الدار: هل أنت في الداخل؟

قال: في الداخل.

قال: إذن افتحه على مصراعيه.

ويؤس صاحب الدار من التخلص من
صاحبهم هذا، واستسلم لما هو واقع، وأمل في
أن يتداركه، وصحبه، الله سبحانه وتعالى.
والثقل حقاً ثقل، لا تقبله حتى الجمادات،
اقرأ هذه الآيات مصداقاً لما أقول:

سقط الثقل من السفينة في الدجى
فبكى عليه رفاقه وترحموا
حتى إذا طلع النهار أتت به
نحو السفينة موجة تتقدم
قالت: خذوه كما أتاني سالماً

لم أبتلعه لأنه لا يهضم
والحديث عن الثقلاء، وعن المتطفلين، يملأ
صفحات وصفحات في كتب الأدب والتاريخ
وغيرها، ويجد الكتاب في قصص هؤلاء راحة من
عناء، وتسلية بعد الجهد، وبهجة في أوقات

السمير، يتندرون على ما يأتي منهم، وما يقدمون عليه، وما يرتكبونه مما يوجب الالتفات. وقد يفتعل الكتاب افتئاتاً بعض القصص، التي يجدون فيها عنصر القبول، وما قد يكون فيه بعض الفائدة. ومحاولة التخلص من الثقلاء، يراعى فيها في الغالب وقدرة الإمكان أن تسلك طرقاً لا تخرجهم، ولا تجرح شعورهم، أو تلمس إحساسهم، وهي طرق متعددة ومتنوعة، وقد تنجح الحيلة، أو تخفق، فيزيد الثقل ثقلاً حينئذ، والهمّ همّاً، ولعل مما يسهم في نجاح الحيلة، أو يتسبب في إخفاقها مقدرة ناصبها على إتقانها، وحبك خطواتها، اعتماداً على ما يعرفه عن الجانب الآخر، وعن خلقه، وعقله، وما يمكن أن يغفل عنه، أو يتنبه له، فإذا اختل جانب من جوانب الفراسة، أو نقص، فتنبه

الثقيل إلى ما يحاك له، ضاع التعب سدى،
وتبخر الجهد، وذهب هباءً، والقصة التي سوف
أسوقها من التراث تكشف عن أمر ثقيل، وحيلة
مبتلى به، فهل نجحت الحيلة أم أخفقت؟
الجواب في القصة، وهاهي:

«كان رجل يطعم رجلاً يلازمه، ولم يكن عنده
في بعض الأيام ما جرت به عادته، فقال لغلامه:
خذ المفتاح معك، وكن قريباً من الدار، فإذا
جاء، ورأى الباب مقفلاً، انصرف.

فلما جاء الرجل، ورأى الباب مقفلاً جلس
ينتظر أن يجيء، ويفتح الباب، فأدركته
الشمس، فلم يزل يتقل من موضع إلى موضع
حتى لم يبق ظل، فقال:

البــــــــــــيت لا أبرح من بابه
حتى يموت الرجس من جلسي

أقتله في البيت جوعاً كما
يقتلني بالجوع في الشمس
أليس في مُنْزَلٍ فـرَقاننا
أن قـتـل النفس بالنفس»
[التذكرة لابن حمدون: ٢ / ٩]
هذه حيلة جُرِّبت، ولم تنجح، ولكن ليس كل
ثقلٍ لزج، وهذه القصة بضاعة مزجاة، فقد
يستفيد منها بعض القراء إن كان ضيفهم ثقيلاً
خفيفاً!!.

جدل ولا جدل^(١)

أغرم الأدباء، وشغل ذوو الأغراض بوضع القصص، وتزوير الحكايات، وتعليقها على مشجب قوي يتحمل أثقل الأحمال، والغرض من هذا يختلف من رجل إلى رجل، ومن حال إلى حال، ومن وقت إلى وقت، فبعضهم يضع القصص للتسلية، ويعلقها على من يمكنها أن تلصق به، ويرويها عن من يمكن أن يقبل منه مثل هذا، وبعضهم يضع القصص والحكايات ليخدم غرضاً في السياسة أو الحكم، لترجح جانباً على جانب، أو لتلمز جانباً وتمجد جانباً. وبعضها وضع للانتقام حنقاً على ميزة احتيزت، أو

(١) نشرت في «المجلة العربية»، في العدد ٢٩٥، السنة ٢٦ في شعبان ١٤٢٢هـ، الموافق نوفمبر ٢٠٠١م.

مكسب اختطف، أو مبرة وقف دونها، أو فضل انتقص منه. وبعضها اخترعت لترجح كفة قبيلة على قبيلة، أو لتعتم جانب هذه وتنير جانب تلك، وبعضها جاء قَطْرَ المهن وعنف المنافسة، أو جاء سرب الصناعات والتعارك فيها، تفاخراً وتنازاً.

ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص صاراً مشجعين ثابتين دائمين، تعلق على كل منهما أحداث لم تقع، أو ينسب لهما معاً حادثة بعينها، ولقد تشوه تاريخهما، وتلون بغير لونه من كثرة ما وضع عليهما، والواضعون الأولون لهذه القصص يبدو أنهم اختطوا جادة لمن بعدهم يسIRON عليها، فزادوا وأضافوا، وتفننوا في اختراع الأحاديث وتأليفها. وكثير من هذه القصص المبتدعة تظهر عمرو بن العاص بأنه

داهية لا يغلب في الأقوال والأفعال، وأنصاره الذين يرسمون صورة له مضيئة يجعلونه يغلب معاوية أبداً، عندما يدخل معه في جدل بدأه أحدهما، وأنصار معاوية، أو من لا يميل إلى عمرو منهم، يجعلون الغالب معاوية والمغلوب في النهاية عمرو.

والواضعون لهذه القصص ينسون في حماسهم، علاقة أحدهما بالآخر، فينزلون معاوية، وهو الخليفة، عن رتبته، ويرفعون عليه عمراً، وهو من رجاله، فهم في حرصهم على الوصول إلى هدفهم، وقد وضعوه نصب أعينهم، يؤلفون القصة وقد أعماهم إشعاع صورة ممدوحهم، فلم يأنهوا بالسامع أو القارئ، وما قد يكتشفه من الخلل، همهم الأول سبك القصة لغير المتعمق، وإفراغ عاطفتهم في قالب

هو في نظرهم كامل، وما عليهم بعد ذلك إلا إيجاد الوسيلة لبث ما صنعوا، وإشاعة ما لفقوا، والإتقان في العمل، وإبعاد الشك عنه، أو التدقيق فيه، يسندونه إلى ميت، أو مجهول، أو يركبون اسماً يصفون صاحبه بما يجعله حقيقاً، وحيّاً يرزق، أو يوصون بأنه رجل غائب، ذهب في أرض الله الواسعة. وقد يجعلونه فارساً، أو تاجراً، أو صانعاً، أو خبّازاً، أو أديباً، أو شاعراً، أو مغنياً.

ومع أن ما جاؤا به ملفق، ولم تحدث حوادثه، فقد خدموا زمنهم ومجتمعهم بأن فتحوا لنا نافذة على ما كان يدور في أذهانهم، وما كانت تميل إليه نفوسهم، وما كان يعتمل في صدورهم، وتجيش به خواطرهم، مما نفسوا عنه بهذه التلفيقات. لقد كشفوا بطريقة طريفة ما

يدور في بيئتهم، وما يتلاءم مع مجتمعهم، وما يقبل فيه، وما يتسم به الشعور العام في حقبة من الحقب المهمة في تاريخ أمتنا. لقد أرونا ما يتسامحون عنه، وما يرضونه، وما يقبله عقلاؤهم أو لا يقبلونه، وما يرحب به رعايهم، وما يرفضونه، وما يؤثر فيهم، ودرجة هذا التأثير، وما يمر دون أن يؤبه له.

ومن النماذج التي تمثل ما ذكرناه القصة التالية:
«ذكر أن عمرو بن العاص دخل على معاوية، وهو يتغدى، فقال:

هلم ياعمرو.

قال: هنيئاً يا أمير المؤمنين، أكلتُ أنفأً.

فقال معاوية: أما علمت أن من شراهة المرء أن لا يدع في بطنه فضلاً؟
قال: قد فعلت.

قال: ويحك، فتركته لمن هو أوجب عليك حقاً
من أمير المؤمنين؟

قال: لا، ولكن لمن لا يعذر عذر أمير المؤمنين.
قال: فلا أراك إلا قد ضيعت حقاً لحق لعلك
لا تدركه.

فقال عمرو: ما لقيت منك يامعاوية.
ثم دنا، فأكل».

(التذكرة لابن حمدون: ٨٧ / ٩).

هذه قصة غلب معاوية فيها عمرواً، كما أريد
له أن يغلب، وقد تكفل الزمن فحسّن من
مجرى هذا الجدل، والفضل لله ثم للتجربة، أو
لاختلاف عقل الواضع الثاني عن الأول، إن
كانت الثانية موضوعاً، والموقف الثاني في عهد
عبد الملك بن مروان، وهذه هي القصة، وفيها
مجال حسن للمقارنة والدراسة:

«دعا عبدالملك بن مروان، رجلاً إلى الغداء.

فقال: ليس بي هواه.

فقال: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه مستزاد.

فقال: عندي مستزاد، وإنما أكره أن أصير إلى ما استقبحه أمير المؤمنين».

(التذكرة لابن حمدون: ٨٧ / ٩)

هذه ليست المرة الأولى التي أشير فيها إلى هذه القصص ونحلها، فقد سبق أن لمست هذا الأمر عمداً أو استطراداً، ولعل هذا حدث أكثر من مرة، ولكن لأهميته جئت به هنا، ولا أستبعد أن أعود إليه مرة أخرى فيما بعد.

ضرب من صلة الرحم^(١)

قدّر العرب أهمية القرابة، لأن مجتمعهم يقتضي ذلك، فالأقرباء لحمه الأسرة، وصلة القبيلة، وحث الدين على صلة الرحم، وشدد وأكد. وكان الناس يقدرّون من يصل رحمه، ويتقدّون من يتراخي في ذلك، وفوائد ذلك رضّى في النفس، وعزّة عند الناس، ولا بد لمن وصل رحمه أن يرى أثناء حياته ثمرة هذا الوصل، في أنه يجد وقت الحاجة من يقف جنبه، يدراً عنه خطراً وقع أو يوشك أن يقع، ويواسيه، ويزيل أسباب الضيق، فيشعر أنه ليس وحيداً في مجتمعه، وخلاف ذلك المقصر في حق أقربائه، والمتراخي فيما عليه من واجب

(١) نشرت في «المجلة العربية»، في العدد ٢٩٦، السنة ٢٦ في شهر رمضان ١٤٢٢هـ، الموافق ديسمبر ٢٠٠١م.

نحوهم، عندما يجور عليه الزمان لا يجد بجانبه
من يخفف عنه ثقل النازلة، أو يحمل معه حمل
نوبات الزمن.

ولأن هذا أمر مهم في حياة العربي والمسلم
فترى الحث على صلة الرحم، وتحمل ما يأتي
من القريب، والتسامح عن زلاته، والإحسان
إليه إذا ما أساء، والاقتراب منه إذا ابتعد، واللين
إذا قسا، والابتسام إذا تجهم، أملاً في أن يعود
إلى جادة المحبة والوئام، فيدخل فيما يجعله
مقبولاً من أقربائه، ومقدراً من عشيرته، متواتراً
في أقوالهم، وملحوظاً في أفعالهم، ومتغنى به
في أشعارهم. يريدون بكل هذا أن ينقشوه في
الأذهان، ويحفروا له جواد في سيرهم في حياة
مجتمعهم.

على رأس الأقوال ما جاء به الدين الحنيف في

القرآن الكريم، وفي السنة المحمدية الشريفة
المطهرة، ومن الأشعار التي تأتي بارزة في هذا
المجال أبيات لمحمد بن عبدالله الأزدي، يقول
فيها:

لا أدفع ابن العم يمشي على شفاً
وإن بلغتني من أذاه الجنادع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه
لترجعه يوماً إليّ الرواجع
وأفرشه مالي وأحفظ غيبه
وأرعاه غيباً بالذي هو سامع
وحسبك من جهل وسوء صنعة
معاداة ذي القربى وإن قيل قاطع
فألبس ثراك الأهل تسلم صدورهم
فلا بد يوماً أن تروع الروائع
(التذكرة لابن حمدون: ١ / ٣٧٤)

(الجنادع: جمع جندع وجندعة، دواب أصغر من القردان تكون في جحور اليرابيع، تخرج إذا دنا الحافر من قعر الجحر، فيقال بدت جنادع الضب، ويضرب مثلاً للذي يأتي شره قبل أن يرى).

هذا الشاعر رسم صوراً متعددة للتسامح مع القريب، فهو لا ينتهز فرصة ينتقم منه حين يراه على شفا جرف هار فيدفعه إلى الهوة جزاء ما أتاه من شره، ولكنه ينسى ذنوبه كلها، ويواسيه عندما تلم به مصيبة، وكأنه لم يأت منه أذى، وهذا أقرب إلى أن يرجعه إلى حظيرة الحب والوئام. هذه صورة وصورة أخرى وهي أن يضع ماله بين يديه يأخذ منه ما يشاء، ويحفظ غيبته، فلا يقول عنه في غيابه إلا ما يقوله من خير في حضوره.

والجهل كل الجهل في نظر هذا الشاعر أن
يعادي المرء قريباً من أقربائه، حتى لو كان قاطعاً
لحبل الرحم، وصارماً لرباط القرابة، فهذا كله
جهل وسوء صنيع.

والشاعر في نهاية قوله يحث المرء أن يكسي
أقرباءه بلباس زاه ضاف من ثرائه الذي حباه
الله به، وبهذا تسلم له صدورهم، وينجو من
غلواء سخطهم أو حقدهم، فقد يحتاج إليهم
في وقت شدة، وإن لم يحتج، فإنه لن يندم على
ما فعل.

هذا قليل مما قيل في التسامح مع القريب،
وحفظ حبال القرابة عن القطع، أو الصرم، أو
البلى.

ثلاثة وثلاث (١)

عمر بن الخطاب أعطاه الله فكراً ثاقباً، وأعطى عمر هذا الفكر حقه في الاستفادة منه فيما ينفع الناس، فهو دائم التفكير في أمورهم، والبحث عما يَجْمَلُها ويُكْمِلُها، ولهذا لا يستغرب أن تأتي منه قواعد عامة تصف المجتمع بدقة، نتيجة ملاحظة طويلة دقيقة متأنية، يراعي فيما يقول الحق، وما يؤكده الواقع والاختبار.

سنجد فيما قاله من قول يصف فيه الرجال والنساء بما لا يزيد عن الواقع في المجتمع الذي عاش فيه عمر - رضي الله عنه - وهو قول عند التدبر يساعد الرجال والنساء على اختيار

(١) نشرت في «المجلة العربية»، في العدد ٢٩٧، السنة ٢٦ في شهر شوال ١٤٢٢ هـ، الموافق يناير ٢٠٠١ م.

الطريق الذي يختارونه، والأمل أن يختاروا
الأصلح، وإذا كان في أحدهم نقص أن يكمله
ما أمكن بما يجعله مختاراً لأنبيل السبل.

وعمر منصف فيما قال، وهذا متوقع منه،
لمقامه وعلمه ومكانه في مجتمعه من حيث قبول
ما يأتي منه، لصحبته لخير الخلق، وتشبعه بأمور
الدين، وما فيه صلاح أُمته.

لقد استقرأ عمر الناس، رجالاً ونساء
فوجدهم لا يخرجون عن قواعد توصل إليها،
وجد أنها تستحق أن تعلن. يقول عمر -رضي
الله عنه- فيما نسب إليه:

«الرجال ثلاثة، والنساء ثلاث:

فامرأة عفيفة، مسلمة، هينة لينة، ودود ولود،
تعين أهلها على الدهر، ولا تعين على أهلها،
وقلّ ما تجدها.

وأخرى وعاء للولد، لا تزيد على ذلك شيئاً.
وأخرى غلّ قمل، يجعلها الله في عنق من
يشاء.

والرجال ثلاثة: رجل عاقل، إذا أقبلت الأمور،
واشبهت، تأمل فيها أمره، ونزل عند رأيه، وآخر
ينزل به الأمر فلا يعرفه، فيأتي ذوي الرأي فينزل
عند رأيهم.

وأخر حائر بائر، لا يأتمر رشداً، ولا يطيع
مرشداً.

(التذكرة لابن حمدون: ١ / ٣٦٩)

هذا في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله
عنه - والحكم منه على مجتمعه، ترى، ماذا نقول
عن زمننا، هل ينطبق عليه حكم عمر وتصنيفه،
أو أن الأمر اليوم أعقد، وأكثر تفريعاً.

العدل مضيء^(١)

أجل إن العدل خصلة مضيئة، نورها يسطع في أفق محيطها بحيث لا يخفى على أحد، وهو نور مبهج، يبعث على الفرحة والحبور والاطمئنان، بالعدل يستقيم أمر المجتمع، وبالعدل يسعد الفرد، العدل أساس ثابت قوي في كل أمر ينصب فيه، فالعدل أساس الملك للحاكم، والعدل براءة الذمة للقاضي فيما يحكم به، وللزوج بما يعامل به ذويه زوجة أو أبناء أو رحماً، وهو براءة ذمة لكل هؤلاء فيما يعاملونه به. بالعدل يرضى الناس بنتاجه لهم أو عليهم، لأنه إذا كان في هذه المرة راجحاً في

(١) نشرت في «المجلة العربية»، في العدد ٢٩٨، السنة ٢٦ في شهر ذو القعدة ١٤٢٢هـ، فبراير ٢٠٠٢م.

صف الخصم، كما يقتضيه الحق، فسيكون يوماً
ما راجحاً في حق هذا الذي جاء العدل عليه،
ولم يأت له.

ومتى كان العدل هدف المرء فإن الله - سبحانه
وتعالى - يعينه على أدائه، وينير له طريقه إليه،
ويحميه ممن قد لا يرى في العدل حقاً، لأن
طبيعته أو خلقه أو تربيته أو مجتمعه يكون
أساساً مجانباً لذلك.

وفي العدل حفظ الحقوق بما يكفل رضى
السوي، وهو المهم، ومن لزم العدل في حكمه، أياً
كان موقعه في المجتمع، فهو لا يأتي بفضيلة
واحدة، وإنما فضائل لا تحصى، ففي عمله هذا
صلاح المجتمع، وصلاح الفرد، والقُدوة لمن ينشأ
في صغره، بحيث لا يعرف إلا العدل في كل أمر
يأتيه وفي أي طريق يسلكه، وفي أي جادة يتنكبها.

ولا يختلف أحد في أهمية العدل، والحرص عليه ونشره، ويتفق الناس على هذا في كل بلد، بل إن الأنظمة، بعد الأديان، حرصت أن تكون قائمة على العدل، بل سميت وزاراتها بوزارات العدل، وما هذا إلا اعترافاً في العالم كله أنه لا صلاح لمجتمع إلا بالعدل. ولهذا فالذنب كبير والأذى مرعب فيما لو تلاعب، من وضع ليعدل، بالعدل، وداس بقدمه على حرمة. والله - سبحانه وتعالى - رقيب على هؤلاء ورؤوف بعباده.

قرأت نصاً عن العدل وأهميته، هذا بدؤه:
«قالوا العدل لا بد منه في كل الأشياء».
ولا يختلف في هذا اثنان، إلا أن النص استمر فقال:

«حتى إن الجور يحتاج إلى العدل» وهذه جملة

تشويق، وتحث الإنسان على التفكير كيف يجتمع
متناقضان: العدل والجور، فيذهب التفكير
مذاهب، ولا يأتي على أرض منبسطة مطمئنة
حتى يأتي على بقية النص، يقول الكاتب:
«وضربوا لذلك مثلاً في قطاع الطريق،
والمجتمعين على ظلم. قالوا لو لم يتناصفوا فيما
بينهم، ولم يستعملوا الواجب فيما يقسمونه
لأنفسد أمرهم، وانحل نظامهم».

وهذا القول وفق بين المتناقضين، بين النور
والظلمة، وبين الجودة والخلل.

(التذكرة لابن حمدون: ١ / ٣٦٩).

خمسة أسس^(١)

كان المفكرون من الناس، أياً كان موقعهم في مجتعاتهم، يتدبرون الأمور التي تمر بهم، ويتبصرون فيها، ويضعون لها صورة في أذهانهم يضيفون إليها، أو يعدّلون فيها، فيزيدون أو ينقصون، حتى تتكامل الصورة، ويضمن أنه لم يخالطها خلل، أو يشوبها هزة، وحينئذ يلقونها للناس تجربة ناضجة، بكلمات قليلة، ولكنها وافية الجانب، واضحة المعنى، وتصبح حكمة يرجع إليها عندما تأتي الحاجة إليها. وهذه الأقوال تمثل رأي من قالها، ولكنها تصبح بضاعة مزجاة، لا يرد عنها مشتر، ولا

(١) نشرت في «المجلة العربية»، في العدد ٢٩٩، السنة ٢٦ في شهر ذو الحجة ١٤٢٢هـ، شهر مارس ٢٠٠٢م.

يحجب عنها طالب.

وهذا كسرى يُروى عنه قول، عند التمعن فيه
يتبين صوابه، يقول كسرى:

«لا تنزل ببلد ليس فيه خمسة أشياء: سلطان
قاهر، وقاض عادل، وسوق قائمة، وطبيب
عالم، ونهر جار».

إذا تدبرنا جوانب هذا القول نجدها وافية بما
يضمن السعادة للنازل بهذا البلد، فالسلطان
القاهر، وليس الظالم، وإنما القادر على إنزال
العقاب الذي يحكم به القاضي العادل، لا
يتراخى فيه، فتضيع هيئته، ويقل اعتباره، كما
حدث لأحد ملوك المماليك، ولعله حاكم
الكرك أو الشوبك، فهذا الحاكم، والصليبيون
على الأبواب في الشام، إذا أتى بقاطع الطريق،
قال: اطلقوه فالحى خير من الميت، وانتهى الأمر

بأن هجم اللصوص وقطاع الطرق على وطاقه
(مخيمه أو معسكره) ونهبوه. أما الحاكم الحازم
الذي جاء بعده، فإنه لما سرقت قافلة قاصدة
الحج، أحضر رؤساء القبائل التي كانت على
هذا الطريق، ووضع أرجلهم في الحديد،
وأقسم أنه إذا لم يحضر القتلة، سيطيح برؤوس
هؤلاء الرؤساء، فأحضروا القتلة، واقتصّ
منهم، ونبه على رؤساء القبائل أن هذه سياسته
مع قطاع الطرق، فأمنت السبل، وثبت
الاستقرار.

وتنبه كسرى إلى وسيلة ازدهار المعيشة، وهي
السوق القائمة، فيتاح للساکن أن يبيع ويشترى،
ويضمن وجود حاجته، فلن يكون بطالاً، ولا
معدماً، وكلمة قائمة ضمان أنها ليست مؤقتة،
أو موسمية، وإنما مستمرة طوال السنة، يجلب

فيها نتاج المواسم، وما يصنع وما يأتي من خارج البلاد.

ولم يهمل كسرى الصحة، فهي عماد من مقومات الحياة، فذكر الطبيب، واشترط أن يكون عالماً حتى لا يكون المتضرر من دوائه أكثر من المستفيد، وكسرى يعرف كيف يستغل الأطباء الجهلة والدجالون ضعف الناس وقت المرض، سواء المرضى أو ذويهم، فهم على استعداد لقبول أي وصفة، وتجريب أي تركيب. وكثيراً ما عاث أمثال هؤلاء الأطباء المدلسون في الناس دون هوادة أو رحمة.

والنهر الجاري رمز لتوفر الماء، وهو وسيلة الحياة الأولى، إذ جعل الله منه كل شيء حي، فإذا نزل المرء في أرض ماؤها لا يكفي سكانها، فقد جلب لأهلها ولنفسه البؤس، وربما ضاع ما

يجمعه من مال على توفير الماء له ولمن يعول.
وليس الأمر أمر شرب، ولكن هناك ما تتطلبه
النظافة، وكمية الماء لذلك ستكون كثيرة، ولهذا
عبر كسرى عن هذا الجانب بالنهر.
(النص من التذكرة لابن حمدون: ١ / ٣٨١)

من النصائح^(١)

النصيحة لا تأتي في الغالب إلا من محب
شفوق، تأتي لتعديل إعوجاج، أو زيادة في خير
قائم، أو تحذير من عمل يؤدي إلى ضرر، أو
بدءاً لإعطاء حصيلة تجربة بعد خبرة طويلة،
ومن أبرز النصائح تلك التي تأتي عند السفر
الخطر، أو الغزو، أو عند الموت، وقد تأتي من
الوالد للولد، ومن الأم للابن أو الابنة، أو من
الصديق لصديقه، أو من الحاكم لولي عهده، أو
من قائد للجيش لمن تحته، أو من المعلم لتلميذه،
أو من رئيس الصنعة لمن يعمل معه.
ويتوقف أسلوبها على من أعطاها، ومن أعطيت

(١) نشرت في «المجلة العربية»، في العدد ٣٠٠، السنة ٢٦ في
شهر محرم ١٤٢٣هـ، شهر أبريل ٢٠٠٢م.

له، والظرف الذي أوجبها، والهدف الذي ترمي إليه، ولكنها عموماً تتسم بالصدق والعمق، ونعمة الرجاء في القبول، والأمل في الفائدة.

وهذه النصيحة الآتية تأتي من قيس بن عاصم، وهو من عرف بالسؤود والكرم والحكمة، وسداد الرأي، والتبجيل من مجتمعه، وهو بحق يستحق ذلك. قال لبنيه وهو يحتضر:

«يابني، احفظوا عني، فإنه لا أحد أنصح لكم مني:

إذا أنا مت فسودوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم، وتهونوا عليهم، وعليكم بحفظ المال فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل».

(التذكرة الحمدونية : ١ / ٣٩٨)

نصيحة جامعة لمن قيلت لهم، في الأمر الذي لا بد أنه كان يشغل ذهن قيس بن عاصم، وهو يعرف ما يحدث عندما يموت محور العائلة، وكيف أن من طبيعة البشر أحياناً أن يتجاوز الصغير الكبير لجرأة فيه، وفي من اختاره، دون مراعاة لما قد يوصل إليه هذا، فقيس نبه أولاده إلى مغبة ذلك، ورسم صورة مروعة لما قد يحدث، ولا شك أن أبناءه لا يريدون أن يحقر كبارهم، وأن يهونوا على الناس.

وقيس، والكرم فيه وفي أسرته عريق، يحث على حفظ المال، وحفظه يعني عدم إضاعته فيما لا فائدة منه، ولم يقل لا تنفقوا المال، بل خص الإضاعة، وهي الجانب المظلم من الإنفاق، ونبه إلى أن حفظ المال منبهة للكرم، فالكرم إذا أنفق المال في وجهه، نبه ذكره، وطار صيته في

الآفاق. ثم أكد قيس بن عاصم أن المال يغني صاحبه عن مد اليد إلى اللئيم، ومدها للئيم أمر مخيف مرعب، لأنه ذلة ما بعدها ذلة، والسلاح الواقى منها هو المال.

ثم يختم قيس بالتحذير الشديد من المسألة، وطلب ما في يد الآخرين، فهذا كسب مهين، وهو آخر ما يمكن أن يفكر فيه الإنسان للكسب، وهو نهاية المعيشة الكريمة.

وليس بعيداً عن هذا ما جاء في نصيحة للحسن بن علي - رضي الله عنهما - إذ يقول:

«لا تنفق إلا بقدر ما تستفيد». وقوله:
«والإنفاق من غير فائدة حربٌ».

(التذكرة الحمدونية : ١ / ٣٩٨)

وهذان القولان لا يمنعان الإنفاق والكرم،

ولكن بهدف، وهدف نبيل، فلا تشتري أو
تعطي ما لا يعود عليك بفائدة دنيا أو ديناً، فإذا
فعلت فأنت عدو نفسك.

نفاق وكذب^(١)

النفاق وحده مذموم أشد الذم، فما بالك إذا جاء في ثوب الكذب، والكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لإرضاء عبد من عباد الله، لم يخدع، ولم يَغُرَّ، وكان في الموقف الذي حدث فضل من الله بأن أقلع هذا العبد، وهو الخليفة المهدي عن هوية لا تليق به، لأنها تلهيه عن أعماله، وعن الالتفات لأُمور المسلمين، ولا تليق إلا بالصغار.

والنفاق إذا تأصل في الإنسان، وخالط لحمه ودمه، وأصر عليه صاحبه غباءً ودناءة، فقد يكون من الصعب أن يدرك مدى ضرره عليه،

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠١، السنة: ٢٦، صفر ١٤٢٣هـ/ مايو ٢٠٠٢م.

في حين أنه كان يظن أن فيه فائدة كبرى،
والنفاق يأتي أحياناً بصورة مغالاة في المدح،
والصاق صفات حسنة في الممدوح ليست
موجودة فيه، أو المغالاة في صفات حميدة
طفيفة تجهم وتضخم حتى تصبح بصورة مزرية
يخجل منها السامع الممدوح وغيره. وحب
الدنيا، وحب الظهور، يؤدي كل منهما بالإنسان
أحياناً إلى هذا المقام، وقد يجد من يَجِبُهُ صاحبه
بعنف، وقد يجد من لا يعطيه وجهاً، وقد يجد
من يَغُضُّ النظر عن هذه الرذيلة لسبب يراه أكثر
فائدة.

والقصة التي نحن بصددھا جاءت في التذكرة
الحمدونية (١ / ٤٣٥)، وهكذا هي:

«كان المهدي يحب الحمام، فأدخل عليه عتاب
بن إبراهيم فقليل له حدثٌ أمير المؤمنين، وكان

قد بلغه استهتار المهدي بالحمام، فقال:
حدثني فلان عن فلان عن أبي هريرة، رفعه
إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه
قال:

لا سبق إلا في حافر أو جناح.
فأمر له بعشرة آلاف درهم.
فلما قام قال المهدي، وهو ينظر في قفا عتاب:
أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - وإنما استحللت ذلك أنا.
وأمر بالحمام فذبحت».

رمى عتاب سنارته، وصاد صيده، وقبض
المال، ولكن معه الاحتقار والتكذيب، ولعل
المهدي لم يرد أن يرده خائباً فيدعي أن حرمانه
ليس لكذبه، ولكن لشيء قد يضر بسمعة
المهدي، فاتقى شر لسانه، ولكنه عرفه، ولعل

المهدي عندما ذبح الحمام، وأقلع عن جمعها،
والمقامرة في مسابقتها، فعل هذا طمعاً في
التكفير عما فعل من جمعها، وصرف الوقت
عليها، والمكافأة على حديث لفقت رواته
والكذب على رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - جريمة كبرى، فقد ورد في الحديث: من
كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.
فالكذب عليه - صلوات الله عليه وسلامه -
زيادة في الدين، أو إنقاص لحكم حديث آخر،
أو تحريف له، وفي كل ذلك خطأ وخلل،
جزاؤها النار، وبئس الدار.

سَلَمُ النِّفَاقِ (١)

بعض النفوس جبلت على النفاق، لأنه لا ميزة نبيلة لها توصلها إلى مقامات الشرف والسؤود، فتبحث عن درج سهل الرقي والصعود، تتسنمه إلى غاياتها. وعملها هذا قد ينجح مع بعض الناس، فينالون عن طريق ذلك بغيتهم، لأن من قبلوه منهم وجدوا فيه من الفائدة ما جعلهم يوهمون المنافق بأن عمله مقبول، ولا خلل فيه، وهو في الحقيقة مليء بإهانة عقل المخاطب الذي يدرك إدراكاً تاماً بأن ما قيل كذب، أريد به التقرب والكسب.

نقص القدرة على شق الطريق، وبلوغ الهدف،

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠٢، السنة: ٢٦، ربيع الأول ١٤٢٣هـ/ يونيو ٢٠٠٢م.

تجعل المنافق ينافق، وعدم الكفاية عنده في خطها
المستقيم تحدوه إلى أن يبحث عن طريق معوج
يجده سهلاً للوصول إلى الغاية التي ينشدها،
ونجاحه مرة واحدة يغريه بأن يكرر هذا النهج،
فيصبح عادة له، ويحمد هذا الالتواء حتى ينسى
أن هناك خلقاً أفضل، ويستمرى عمله حتى
يصحو يوماً على تأنيب حاد يجلبج بصوت عال
كيانه، ويهز ما استقر في نفسه من النفاق، الذي
يجعله يدرك أنه لم يكن يهزأ بالناس، وإنما يهزأ
بنفسه، ويشير هزء الآخرين به.

والمنافق يقظ يستغل الأوقات المواتية، فيرمي
بثقله المشين، وقد وقع أحد المنافقين نتيجة خطته
المتدنية مع أحد الذين يثأرون لكرامتهم، ولا
يرضون أن بهم من الغباء ما لا يستطيعون معه
إدراك هدف المنافق، ولهذا أوقف هذا النابه هذا

المرائي عند حده علناً، وأبان له قبح فعله،
وجازاه جزاء أوفى، وكان الجزاء من قادر عليه
لمستحق له، أمام الناس وعلى رؤوس الأشهاد،
والقصة هكذا جاءت:

«لما أتى المنصور برأس إبراهيم بن عبدالله بن
الحسن، فوضع بين يديه، جاء بعض الراوندية،
فضرب الرأس بعمود بيده، فقال المنصور
للمسيب: سوّ وجهه. فدق المسيب أنفه حتى
سطحه مع وجهه، ثم قال:

يا بن اللخناء تجيء إلى رأس ابن عمي، وقد صار
إلى حال لا يدفع عن نفسه، ولا ينفع، فتضربه
بعمود، كأنك رأيته يريد نفسك أو نفسي، فدفعته
عني، اخرج إلى لعنة الله وأليم عقابه».

(التذكرة لابن حمدون: ١ / ٤٤٠)

لم يكن هذا الراوندي يعرف ما يجول بخاطر

المنصور من الألم وهو يرى ابن عمه مجندلاً،
وحماية الملك هي التي دفعت المنصور إلى قتله،
ولكنه يبقى من لحمه ودمه، واحترامه
مخالطهما، وهذا الراوندي سيطرت عليه روح
التقرب المتدني، وأعمته مصلحته عما هو أهم،
والموقف هذا في عذر المنصور فيما فعل يتمثل
فيما أجاب به أحد الخلفاء سائله، ويقال إنه
عبد الملك بن مروان، سألته حبي المدينة:

«أقتلت عمراً؟»

فقال: قتلته وهو أعز عليّ من دم ناظري،
ولكن لا يجتمع فحلان في شول».

(التذكرة لابن حمدون: ١ / ٤٣٣)

وهناك قصة أخرى تجري حوادثها في مجرى
آخر من النفاق ولكنها تصب مع السابقة في
مجرى واحد، والعقاب فيها أقل، لأن النيل من

المتقرب به كان أسهل، ومع هذا فلم يعدم المنافق من أن يتلقى درساً وافياً يبقى مع الزمن يتجدد يوماً بعد يوم، ويكون قاعدة ثابتة في أذهان الناس، ورادعة لكل من تسول له نفسه أن يخرج عنها. وهي معروفة فعلاً من قديم الزمان، وأكدها القول الآتي، قولاً، وجددها حكمة.

«أقبل رجل من خاصة عبدالمملك يعيب مصعباً، فنظر إليه عبدالمملك نظر كراهة لما قال، ثم قال: امسك، أما علمت أن من صغر مقتولاً فقد أزرى بقاتله؟»

(التذكرة لابن حمدون : ١ / ٤٣٣)

ما قاله عبدالمملك لم يخطر ببال المنافق الذي سيطر عليه النفاق، وأراد أن يتقرب لعبد الملك بطريقة ساذجة، جرّت عليه هذه الملاحظة ذات النظرة الشزررة.

ما لونها؟^(١)

تمحك بني إسرائيل في ذبح البقرة، وطلب أوصافها عدة مرات، معروف لكل مسلم، لوروده في القرآن مفصلاً. هذا التردد في الإقدام على الأمر رغم وجوب الإقدام أمر يلاحظه بعض الناس في بعض الناس، فيلاحظ لدى بعض الموظفين الذين يوكل إليهم عمل فلا يمشون خطوة حتى يراجعوا رئيسهم عدة مرات فيه، مما يوجب أحياناً أن يختار الرئيس أن ينجز الأمر بنفسه. هذا أمر ليس مثيراً للأعصاب فقط، ولكنه يثير اليأس من هذا الموظف الذي أتى به ليعين، فأصبح عبئاً على العمل، وهذا

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠٣، السنة: ٢٧، ربيع الآخر ١٤٢٣هـ الموافق يولييه ٢٠٠٢م.

مظهر من الموظف يدل على عدم الثقة بالنفس، مع أن غيره من الحازمين يفكر ويعمل مؤملاً أن عمله الذي نفذه هو المطلوب، وإذا تبين أن فيه خطأ فما على المجتهد ملامة. وهذا الفعل يكسب صاحبه خبرة، سواء كان ذلك من مزاوله العمل، أو من تصحيح بعض خطواته.

وكثيراً ما ضاع على المتردد والمتمحك من فوائد نتيجة لذلك، خاصة في الأمور الحيوية، مثل العلاج، والتعليم، والتجارة، والسفر، والزواج، والاهتداء إلى أفضل السبل في أمر فيه خيار متعدد الجوانب.

وقد استوقفني وأنا أقرأ في كتاب «التذكرة الحمدونية، الصفحتان: ٤٥٩--٤٦٠» بعض القصص التي تتسم بصفة التمحك، وتوالي الأسئلة، مما يدل على عدم الكفاية والمقدرة على

العمل المسند إلى هذا الشخص:

«قال أبو الزناد:

كنت كاتباً لعمر بن عبدالعزيز، وكان يكتب
إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن
الخطاب في المظالم فيراجعها فيها، فكتب إليه:
يخيل إليّ أنّي لو كتبت إليك أن تعطي لرجل
شاة لكتبت إليّ: أضأن أم ماعز، ولو كتبت
إليك بإحدهما لكتبت: أذكر أم أنثى، ولو
كتبت إليك بإحدهما لكتبت أصغير أم كبير.
فإذا أتاك كتابي هذا فلا تراجعني فيها».

يمكننا أن نتصور الحالة النفسية التي كان عليها
عمر بن عبدالعزيز وهو يتدبر أمر عامله هذا،
خاصة وأن الأمر يتطلب رفع ظلم، وإحقاق
حق، ولا بد أن عمر لم يقل ما قال، ولم ينفث
هذه النفثة الصدرية الحارقة إلا بعد أن تجرع من

غصات الصبر ما الله به عليم.

وعلى هذه الجادة تسير القصة الثانية الآتية:

«كتب أبو جعفر إلى سلم يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم بن عبدالله بن الحسن، وعقر نخلهم.

فكتب إليه: بأي ذلك نبدأ بالدور أم بالنخل؟

فكتب إليه أبو جعفر:

أما بعد، فإني لو أمرتك بإفساد تمرهم لكتبت تستأذن بآئه نبدأ، بالبرني أو الشهريز. وعزله، وولى محمد بن سليمان مكانه».

قبل أن نؤكد أن سلماً مثل عبدالحميد، نذكر تبرئة للذمة أن سلماً ربما أراد أن يتأكد أن المدة بين الأمر والمراجعة فيه قد بردت صدر أبي جعفر، خاصة وأن بعض عمال العباسيين يتعاطفون سراً مع العلويين. فإن لم يكن هذا هو

السبب في المراجعة فسلم يقف على عتبة واحدة
مع عبد الحميد في التردد في تنفيذ الأمر المعطى
له. والملاحظ توافق رأي الحاكمين في تأنيب
عامليهما على هذا العمل المتشابه.

السفر ومتطلباته^(١)

الاستقرار للإنسان هو الأساس، والسفر أمر طارئ، والاستقرار فيه راحة، وانتظام حياة، والسفر، رغم فوائده، إلا أن فيه من المشاق أمور كثيرة أوجبت أن يقول أحدهم إن السفر قطعة من جهنم، وهذا صحيح في الماضي والحاضر. وإن كان الإزعاج في الحاضر يختلف عنه في الماضي، إلا أن فيه من المنغصات ما يجعله قُطِيعَةً، إن لم يكن قطعة، من جهنم.

فالسفر في الماضي على الدواب، وقد ينفق بعضها، وقد يهاجم قطاع الطرق المسافرين، وما أكثر ما حدث هذا، وقد يداهمه سيل جارف،

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠٤، السنة: ٢٧، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ الموافق أغسطس ٢٠٠٢م.

وقد يفترسه سبع، أو تلدغه حيّة، أو يمرض فلا يجد علاجاً ولا معالجاً، وقد يضيع عن الطريق، فيهلك.

هذه بعض منغصات السفر في الماضي في البر، أما في البحر، فهناك الغرق واحتماله. هذا في الماضي، أما في الحاضر فمن منغصات السفر حجز الأماكن في الطائرة وفي الفندق، وإجراءات الجمارك والجوازات، ومراجعة السفارات، وملء البيانات، وأحياناً إعطاء الضمانات، ومع هذا فالناس اليوم لا يهتمون بذلك، إما لأن هناك من يتوكل بجانب الإزعاج عنهم من ابن أو قريب أو خادم أو صديق، فإن كان السفر للتجارة أو العلاج فكل أمر يهون، أما إذا كان للفسحة فجزء من بهجتها يذهب في التمهيد لها، وفي عدم وجود راحة في فندق

مثل الراحة يجدها المرء في بيته، بين أهله،
وأصدقائه، وأقرباؤه قرييون منه.

الحديث عن السفر في الحاضر أمره يطول،
لتنوع وسائله، وتعدد أغراضه، وتشعب فرق من
يقوم به، وتداخل وسائل القائمين عليه، ولكن
الحديث عن جانب من جوانب السفر في
الماضي فيه فائدة عظيمة، لأن ما سوف نتطرق
إليه جاء على لسان رجل له مقامه، وله احترامه،
ولكلمته وزنها، والأمل كبير في صواب ما يأتي
منه، خاصة وقد جاء في صورة نصيحة تقطر
صدقاً، وتنطق حقاً، وسوف يكون فيه فائدة
لإخواننا الذين يجوبون الصحراء أيام الشتاء
وأيام الربيع تمتعاً بالخضرة واقتناصاً للكمأة،
واكتشافاً لجزء مهم من بلادهم، وما فيها من
حكم بالغة، وفوائد جمة:

«وصّى محمد بن علي بن الحسين بعض أصحابه، وهو يريد سفراً، فقال:

لا تسيرن سيراً وأنت حاقن، ولا تنزلن ليلاً لقضاء حاجة إلا ورجلك في خف، ولا تبولن في نفق، ولا تذوقن بقلة ولا تشمها حتى تعلم ماهي، ولا تشرب من سقاء حتى تعلم ما فيه. واحذر من تعرف، ولا تصحب من لا تعرف.

(التذكرة لابن حمدون: ١ / ٣٩٤)

إذا تبصرنا هذه الأقوال نجد أن وراءها النفع العميم، وكم من شخص أصبح ضحية لعدم معرفته بها، فقلوله: «لا تسيرن سيراً وأنت حاقن» فالسير السريع يؤدي «المبولة» وقد يسبب الحصر، والنزول عن الدابة حافياً أو بنعل قد يكون على هامة حيّة أو عقرب أو شوك حاد، والخف يحمي القدم وأسفل الساق وهما

العرضة لما ذكر. وقوله: «لا تبولن في نفق» حكمته أنه قد يكون في النفق حيوان مهاجم ولا تأمن أن يضرك ضرراً بالغاً، أو حيوان مرتعب خائف فينفج عليك فجأة فتقطع البول مما يسبب لك أذى في أجهزة البول، وأنت في غنى عن البول في نفق وعندك أرض الله الواسعة.

ثم قال: «لا تذوقن بقله ولا تشمها حتى تعلم ماهي» لأن النبتة أو العشبة قد تكون سامة قاتلة، ونحن نشاهد كثيراً ممن يذهبون إلى البر هوايتهم تذوق النبت أو شمه. ثم قال: «ولا تشرب من سقاء حتى تعلم ما فيه»، والسبب في هذا أنه قد يكون في القربة أو السقاء حشرة أو دويبة ميتة، والأفضل أن تسكب من القربة إلى وعاء لتبين ما فيه، وترى لون الماء وريحه ثم طعمه، وبعض الناس يستسهل أن يشرب من فم السقاء.

ويزيد محمد بن علي في النصيحة فيحذر من
الثقة في الناس فمعرفة المرء بآخر لا تعني
إعطائه الثقة الكاملة، يحسن المرء الظن، ولكن
يكون حذراً، أما من لا تعرف فلا تصاحبه،
وكثير من الناس ندم على مصاحبة من لا
يعرف، إذ كشفت له الأيام أن اللين في أول
الأمر لين ملمس حيّة.

فهذه الكلمات فيها من الإشعاع والنور ما
يكشف النافع والضار.

حنان البنات^(١)

عاطفة البنت نحو والديها تتصف بالركة،
وتتدثر بالعطف، وتتجلبب بالحنان، ولا ينظر
إلى من شذ في زماننا أو في غيره. طبيعة الابنة
تقتضيها أن تكون لصيقة بوالديها، تدخلهم في
سويداء قلبها، ويدخلونها، ويتضح هذا بصورة
بينة عندما يضعف أحدهما، فهي القيّمة، وهي
اليقظة، وهي الساهرة، وهي الممرضة، واستلزم
طبعها وعملها أن تسمى بحق ربة البيت، ومع
هذا فإن بعض الناس يشعر بخيبة أمل عندما
يُعلم بأن زوجته ولدت بنتاً، ولم يُبشّر بقدوم
ولد، وقد يبدو هذا واضحاً في وجهه، وفي

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠٥، السنة: ٢٧، جمادى
الآخرة ١٤٢٣هـ الموافق ٢٠٠٢م.

تصرفه، وقد ينجح في إخفاء ذلك، وقد يكون ذلك سببه أن الابن له ميزات أعطاه إياها الشرع من ناحية الإرث والقوامة، وما يتوقع منه من حماية الأسرة أمنًا ومعيشة. وأصبح حب مجيء الابن هو السائد، وإن خيب الابن أمل أبيه، وأصبح حملاً ثقيلاً لا حاملاً للثقل. وقد يكون السبب في أن الابن يحمي نفسه ويحمي غيره، في حين أن البنت لا تحمي وتحتاج إلى حماية. وقد بلغ الأمر في الجاهلية خوفاً من العار أن تؤاد البنت، وأن تقبر حية، ولم يكن ذلك عن سخط في تلك اللحظات، ولكنه خوف من أمر عظيم قد يحدث في المستقبل، ولهذا روي عن أحد الرجال البارزين في الجاهلية أن عينيه كانتا تدمعان وهو يهيل التراب على ابنته التي كانت تمسح غبار التراب عن وجهه، حنان حتى في

مثل هذا الموقف العصيب، المذهل عن الغبار
وما هو أكثر منه، ولكنها الطبيعة والفطرة التي
فطر الله البنات عليها.

إن دفء صدر الأم وهي ترضع طفلها لا
يعدله دفء وفيه شعور بالالتصاق ليس عند
الأب مثله، ولهذا يجيء تأديب الابن من أبيه،
لما يحتاج ذلك إلى خشونة وعقل لا تضعفه
العاطفة التي في طبع الأم، ولازمة من لوازم
الحنان لديها.

وكل زمن له أبنائه وبناته، وما يأتون وما
يدعون. تحدوهم بهذا طبيعة وتربية، ومحيط
مجتمع، وجوانب معيشة، وقد وقفت وقفة
قصيرة أمام نص رسم صورة واضحة لرأي
رجل له وزنه في مجتمعه عن بنته وابنه، وما
لاحظه منهما تجاهه:

«قال أبو الحسن الأعرابي:

كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة، فتبرز
كفاً كأنه طلعة، في ذراع كأنه جمارة، فما تقع
عينها على أكلة نفيسة إلا خصتني بها،
فزوجتها، فصار يجلس معي على المائدة ابن
لي، فصار يبرز كفاً كأنها كرنافة، في ذراع كأنه
كربة، فما تقع عينه على لقمة طيبة إلا سبقت
يده إليها».

(تحفة العروس: ٢٧٩)

الشعر سحر^(١)

أليس قد قيل: «إن من البيان لسحرا»، وأليس الشعر بياناً، وأي بيان! ومما يؤكد أنه ليس كل إنسان يستطيعه، وأن من يستطيعه الاستطاعة الفائقة هو من يولد وعنده الملكة الشعرية، أو اكتسبها منذ نعومة أظفاره، ومقاييس جودة الشعر معروفة، ولا يختلف عليها إلا من باب المماحكة والمغالطة، ويخون هؤلاء المغالطون ظهور البهجة والطرب أو الإنفعال والإقبال على العمل الذي يحث عليه الشاعر، أو حذر من عمله، فيسقط بهذا النقد، ويتوارى أصحابه.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠٦، السنة: ٢٧، رجب ١٤٢٣هـ الموافق سبتمبر ٢٠٠٢م.

والشعر ملازم للإنسان، فهو إما أن يجلبه
بضاعة أو أن يشتريه جوهرة، وقد يكون
الحماس له من قبل من لا يقوله أكثر ممن يقوله،
إلا في شرع الشاعر الذي قال لمستمعيه لماذا لا
تقولون أحسنت؟

وقد يجبر الشاعر في خلوة من خلواته قصيدة
بديعة تعجب وتطرب، وتأتي متكاملة من حيث
موضوعها، ومراميها، وتأثيرها. والمقدرة
والخلوة وتوفير وسائل الإيحاء من هدوء، أو
محيط جميل فيه من الخضرة والزهور، يساعد
على الإبداع. وقد يقلل هذا من دهشة السامع لما
وصل إليه الشاعر من حسن في الشعر، وجودة
في القول، ولكن الدهشة الحقيقية هي عندما
يأتي الإبداع في الشعر ارتجالاً، في موقع تحدٍّ
ومنافسة، يستوي في هذا الشاعر الفصيح

والشاعر الشعبي، وقد رأينا بعض ما يأتي به هؤلاء الشعراء الشعبيون من سرعة بديهة، وحضور خاطر، ولو لم تكن حاضرين وسامعين لداخلنا الشك، خاصة عندما يختار الشاعر أن أسلوب الرمز، حتى أن بعض من يستمع لا يدري عن المقصود، وحين تكشف الأغنية، وتزال الحجب، تزول الدهشة، وقد يجد الحاضرون أن الشاعرين لعبا برؤوسهم كرة، وهم كانوا يظنون أن الأمر بعيد عنهم. وفن «المراد» في الأدب الشعبي فن معروف وقائم بذاته، وهو من فنون الشعر التي تؤكد أن الشعر سحر، ومثله في الفصحى الإجازة، حين يضع شاعر شطر بيت ويقول لآخر أجزه أو أكمله.

ولا أريد أن أورد شعراً عاماً، وإنما سأورد شعراً

فصيحا، يوجب الدهشة والتسليم بارتفاع الفكر،
ونباهة القلب، وعمق الثقافة، وتميز الشاعر:

قال أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي
المرسي في كتابه: زاد المسافر، وغرة محيا الأدب
السافر: «

حدثني بعض أهل شلب أنه كان بين ابن
المنخل وبين ابن الملاح صداقة من الشباب إلى
الهرم، ونشأ ابناهما على مثل ذلك إلى أن وقع
بين الولدين ما يقع بين الناس، عاتب ابن المنخل
ولده على إقذاعه، فأنشده ولده هجاء لابن
الملاح فيهما، وكانا يسيران على واد فيه ضفادع
تنق.

فقال ابن المنخل: تنق ضفادع الوادي.

فقال ابنه: بصوت غير معتاد.

فقال أبوبكر: كأن ضجيج معولها.

فقال ابنه: بنو الملاح في النادي.
فقال أبوبكر: وتصمت مثل صمتهم.
فقال ابنه: إذا اجتمعوا على زاد.
قال أبو بكر: فلا غوث لملهوف.
فقال ابنه: ولا غيث لمرتاد.
فقال أبوه: أحسنت والله، ما منها قسيم إلا
وقد كنت أجزته بما وقع عليه خاطرك». «وهذا عندي ليس بنكير على معاصر مع
معاصر، فكيف على ولد مع والده».
(زاد المسافر ص: ١٣٠، دار الرائد العربي
١٩٨٠م).

العقل جوهرة^(١)

العقل جوهرة مضيئة لامعة إذا أعطي القياد على أعمال الإنسان، وحكمها حكماً مطلقاً، ووجهها الوجهة الحسنة التي يراها، وقد كرم الله - سبحانه وتعالى - العقل فجعله في أعلى جسم الإنسان، إعزازاً له، وتأكيداً لمقامه، وميز الله الإنسان بالعقل ليعمر الكون، وتستقيم الحياة، فإذا غذي العقل بالمزيد من المعلومات، وخزنت فيه التجارب، فإن إنتاجه سعادة وغبطة.

والعقل المنير اللامع ليس وفقاً على فئة دون فئة، أو جنساً دون جنس، فقد يأتي نور العقل من أسود ويحرم من قوته وإنارته أبيض، وقد يرى

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠٧، السنة: ٢٧، شعبان ١٤٢٣هـ الموافق أكتوبر ٢٠٠٢م.

عند امرأة ولا يرى عند رجل، وقد تأتي الحكمة
والعقل من الصغير فيبهت من ذلك الكبير.
والعقل يجلب لصاحبه، في ضوء تصرفه
المتقن، الاحترام والتبجيل والتقدير، ويقبل ما
يأتي منه، في ضوء ما يتبين في قوله أو فعله من
صحة وجمال. والعقل الناضج، المسدد من
خالق الكون، يأتي بالنفع العميم عند الحاجة،
ويمنع الخطر المحدث والضرر المتوقع، فكم من
رأي سديد منع مصيبة، وجلب فائدة.
وكتب العلم والتاريخ والأدب مليئة بأمثلة من
نضج عقول جاء منها رأي مدهش، وتصرف
جميل كان موضع الإعجاب والإكبار، والقصة
الآتية نموذج من نماذج العقل الناضج، جاءت
هذه القصة في رأس امرأة رجح عقلها على
عقل زوجها، فبحكمة وعقل تفادت زوبعة،

وحصدت تقديراً وحباً، ولعلها أعطت درساً
أفاد زوجها فائدة عظمتي، وأفادت غيره وغيرها
ممن اقتدى بها.

«حكى صاحب كتاب الأدب، قال:

وقع خالد بن يزيد بن معاوية يوماً في عبدالله
ابن الزبير، وأقبل يصفه بالبخل، ورملة بنت
الزبير، أخت عبدالله، حاضرة، فأطرقت، ولم
تتكلم بكلمة. فقال لها خالد: مالك لا تتكلمين،
أرضى عما قلت، أم تنزهاً عن جوابي؟

فقالت: لا هذا ولا ذاك، ولكن المرأة لم تخلق
للدخول بين الرجال، إنما نحن رياحين للشم
والضم، فمالنا والدخول بينكم.

فأعجبه قولها، وقام فقبل عينيها.

لله درها! لقد حولت جلمود الصخر المنحط
من علٍ إلى نبتة عبقة الرائحة.

الأمثال وموقعها^(١)

الأمثال جمل مختصرة، ولكن مراميها مطولة، ومداهها واسع، وأصداءها بعيدة. فيها حكمة بالغة، وهدف محدد تختزنه في قلبها، وينطق بما فيها لسانها، يلجأ إليها من أراد لقوله أن يبلغ المرمى، ويصيب الهدف، عن طريق قصير، وفي وقت سريع.

وقد يعرف أصل المثل ومنشؤه، ومتى قيل، وما هو سبب قوله، وقد لا يعرف، ولكن فؤاده يبقى حياً مع الزمن لا يضعف. وقد يتخبط الناس في أصل المثل ومنشئه، يبعد الناس في هذا ويقتربون، وقد يضربون صفحاً عن التمسك

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣٠٨، السنة: ٢٧، رمضان ١٤٢٣هـ الموافق نوفمبر-ديسمبر ٢٠٠٢م.

بالبحث عن هذا لأن أهمية المثل، وبريقه،
يصرفهم عن ذلك.

والمثل عادة يأتي مصبوغاً بصبغة البيئة التي ولد
فيها، وتبلور في جنباتها، ليصبح ممثلاً أميناً لها،
ناطقاً بطبعها، وممثلاً صادقاً لها. فإن كانت البيئة
بيئة صحراء جاء المثل ممثلاً لجانب من
الصحراء، أو لأمر من أمورها، أو مظهر من
مظاهرها، من نبت أو حيوان، أو عدة من
لوازمها، أو راسماً لجانب من سكنها، وأثاثه، أو
لامساً لصلة الناس بعضهم ببعض، محبة أو
بغضاً، سلماً أو حرباً، لما هو داخل القبيلة، أو
بينها وأخرى. يصور الشباب أو الكهولة،
الذكور أو الإناث، والغرام والغش والزواج،
والأفراح، والموت والأتراح.

لا يخرج مثل الصحراء عنها، ولا ينبع من

غيرها، وقد بقي من هذه الأمثال ما قاوم الزمن،
ووصلنا قوياً فتياً رغم أن البيئة التي نزع منها
تغيرت وتبدلت، ولم يعد لها إلا رسوم بالية لا
تفصح عن كثير لولا ما ينطق به المثل عنها.

هذا عن الصحراء، والمزارعون والفلاحون لهم
بيئتهم، ومنها تنبع أمثالهم المتقنة عن بيئتهم،
وترمي بظلالها عليهم، تمثلهم خير تمثيل، وتعمق
حتى تكشف ما يكون في القاع، وتصبح الأمثال
مظهراً حضارياً لهذه البيئة في زمن ما، يضاف
إليه ما قد يجد ما لم يكن قائماً من قبل، سواء
كان ذلك في النبات، أو في وسائله، أو معداته، أو
الإنجاز به، أو استهلاك المنتج.

وهكذا الأمر في بيآت المهن المختلفة، وهي لا
تكاد تحصر زمناً أو موقعاً، وفيها من الحياة ما في
غيرها من دليل وتأثير.

وهذه أمثلة محدودة عن البيئة استقيتها من
أحد الكتب القريية مني، وهو كتاب (تمام المتون
في شرح رسالة ابن زيدون) لخليل بن أبيك
الصفدي، وهذه الأمثلة تمثل الصحراء:

أغر من سراب (صفحة ٣١٧)، أعز من ظبي
مقمر (٣١٧)، إلتقى البطان والحقب (١٠٨)،
إلتقت حلقتا البطان (١٠٨)، بلغ السيل الزبي
(١٠٧، ١٩٢)، خامري أم عامر (٣١٨)، كل
الصيد في جوف الفرا (٢٣٧).

هذه أمثلة محدودة، والاستقصاء يوجب كتابة
مجلدات.

فاكهة المشيب^(١)

إذا تقدمت بالمرء السن، وأبعد عن عهد الشباب، وفقد بهذا ميزات كان ينعم بها، من حيوية متقدمة، وقوة عامة، إلى غير ذلك من مزايا حصرها ظلم لها، تبقى ذكرى الشباب تخايله، تمر أمام عينيه عندما يحتاج في مشيبه إلى ميزة من تلك الميزات، فيبقى متحسراً عليها، وغابطاً من لا يزال يتمتع بها من الشباب، وكلما كان الضعف فيه شديداً زادت غبطته لمن كانت قوته بادية، وكلما احتاج إلى النضارة في المظهر زادت حسرته أمام من لا يزال يتمتع بنضارة الشباب.

(١) نشرت في «المجلة العربية»، العدد: ٣٠٩، السنة ٢٧، في شوال ١٤٢٣ هـ الموافق ديسمبر ٢٠٠٢ م.

يبرز هذا عندما يخونه نظره، أو لا يسعفه سمعه، أو لا تواتيه عند الحاجة ذاكرته، يذكر الشباب عندما يمر عليه وقت في فراشه يتقلب على جنبيه وظهره، وقد جفاه النوم، وابتعدت عنه لذة الرقاد، ويذكره وهو يسير يتوقع العثور لضعف ساقيه، يحسب لعدم استواء الأرض لهما حساباً شديداً، يشغل باله وهو يسير، ويقض مضجعه وهو يهم بالمسير.

والأطعمة التي كانت سائغة لم تعد كذلك، وشرب الماء على العطش مختلف، لبس الملابس يأخذ وقتاً، وخلعها يأخذ دهرأ. وقد يستعين على ذلك.

ولكن، ومع هذا، فالتقدم في السن لا يخلو من ميزات قدرها عظيم، وفائدتها جلى، وأقربها قدرة الكبير على التروي في الأمور،

وإعطائها حقها في التأني والتبصر والتدبر،
ولدى الكبير في السن من القدرة على صحة
النظر إلى الأمور ما ليس عند الشباب، لأنه عند
مقابلة العضلة تمر أمامه تجارب تعطيه العظة،
وتنبهه إلى ما لا يمكن أن يتصوره من لم تمر به،
وذنه ينتقل إلى مخرون التجارب، يبحث فيما
بين رفوفه، ويقلب ما أودع فيه، فيختار
الأصلح، ويؤلف بين الأجزاء، ليصل إلى بغيته
التي تأتي بأمر متكامل مرض.

ويطلب النصح أحياناً من الكبير، ويستشار
إيماناً بما قدر على الاستفادة منه في عمره
الطويل، وثقة بأن عنده ما ليس عند من هو
أصغر منه، هذا إذا لم يكن الوهن قد دب إلى
رأسه، ولا مس ذهنه وفكره، أو أصبحت عاطفته
قيادها الرقة لا العقل.

الكلمات الأتية معين من ذهب، جاءت من
رجل عرك الأيام، وعصرها، وعرف ما احتوت
عليه، فجاء قوله دُرراً، يرحب بها الواقع،
ويطرب لها العقل، ولا شك أنها من إملاء
العقل، وطرح التجربة، وحصيلة التأملي والتدبر.
قال أبو الحسن: قال عبدالله بن الحسن لابنه
محمد حين أراد الاستخفاء:

أي بني، إني مؤد إليك حق الله في حسن
تأديبك، فأد إلي حق الله في حسن الاستماع.
أي بني:

كف الأذى، وارفض البذاء، واستغن عن
الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك
نفسك فيها إلى القول، فإن للقول ساعات يضر
فيها خطؤه ولا ينفع فيها صوابه. إحذر مشورة
الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة

العاقل إذا كان غاشاً، فإنهما يوشكا ان يورطاك
بمشورتهما، فيسبق إليك مكر العاقل، وتوريط
الجاهل.

(البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق فوزي
عطوي، دار صعب: ١٩٦٨م).

الزوجة وضرتها^(١)

الزوجة عندما تتزوج ترسم لها مملكة، تحميها ما أمكنتها الحماية من أن يدخلها متطفل يشاركها فيها، وقد يأتي يوم يزحف فيه المتطفل على حقها وقسطها من المشاركة، وقد يأتي يوم آخر لا يبقى لها إلا القليل، وقد تخرج منه كلية، والمشاركة تأتي من زوجة أخرى أو ثالثة أو الرابعة، لهذا فهي، إن كانت عاقلاً، تبقى يقظة، تسد أمام زوجها أي باب يجعله يتطلع إلى ما ينقصه، ولكن حراسة الأبواب والنوافذ قد لا تكفي، فتأتي الزوجة الأخرى من السطح، فتحل فجأة، ويكون الأمر قد فات، ولا بد من

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١٠، السنة: ٢٧، ذو القعدة ١٤٢٣هـ - يناير/فبراير ٢٠٠٣م.

التعايش مع الواقع، ولكن الزوجة الأولى تبقى
يدها على الزناد، تطلق طليقة هنا وطلقة هناك،
وهي لا تفوت الفرصة إذا سنحت، ولا تلام
فقلب سكنه الحب والتعاطف والتراحم لا
يستكين، ويجتهد في أن يبقى هذا كله كاملاً،
والمشاركة تنقص ذلك، ولم أسمع عن زوجة،
رضيت أن تشارك في زوجها إلا امرأة من
النوادر جداً، في قصة رواها المؤرخ الجبرتي -
رحمه الله- وإن لم تخني الذاكرة، فالقصة عن
إحدى قريباته، ومؤداها إن إحدى الزوجات
كبرت في السن، وشعرت أن زوجها في حاجة
إلى زوجة شابة، فاشتريت فتاة لم يبق عليها
للبلوغ إلا القليل، وصارت هذه المملوكة مثل
ابنتها، ولعلها أرادت أن توثق هذا الحب وتشهد
عليه، فزوجت زوجها على هذه الفتاة، ودامت

المحبة، بل إنها ازدادت، وجاء يوم مرضت فيه الفتاة، فأقض ذلك مضجع الزوجة، وأخذت تمرضها ليل نهار، وانقطعت لذلك، وأرهقت بذلك، فماتت الشابة في الصباح، وماتت الزوجة الأولى في المساء. ولكن هذه الحالة غريبة، وتخرج عما هو معتاد في النساء وغيرتهن.

وخلاف ذلك، على ما هو معهود في النساء، في حماية بيت الزوجية من أي متطفل، أو متسلل، تأتي القصة الأخرى، وهي تبين كيف أن المرأة لا تنسى الجرح الذي أصابها من الزوجة الثانية، وتنتهز الفرصة لترسم لضرتها في ذهن زوجها صورة مُنفرة، متجاهلة كل ما فيها من جمال، وأصالة، وحسن أدب، وإنجاب، ومركزة على جانب مظلم واحد، تبرزه في

حديثها ليظلل كل الجوانب المنيرة الأخرى.
وهذه القصة يرويها صاحب (تحفة العروس
ونزهة النفوس) (ص: ٢٥٨)، ويقول فيها:

ومن معائب الأنف ضخامته وكبره، قال أبو
الفرج في الأغاني: كانت رملة بنت عبدالله بن
خلف جميلة، حسنة الجسم، وكان أنفها عظيماً،
وكان ذلك يعيبها، وتزوجها عمر بن عبيدالله
بن معمر، وكانت عنده عائشة بنت طلحة، فقال
يوماً لعائشة:

فعلت يوم أبي فديك كذا وكذا، وفعلت يوم
سجستان كذا. وجعل يعدد أيام حروبه.
فقالت له عائشة:

أنا أعلم أنك أشجع الناس، وأعرف لك يوماً
كنت فيه أشجع من جميع أيامك الذي ذكرت.
قال: وما هو؟

قالت: يوم اختليت برملة، وأقدمت على أنفها.

عائشة وجدت المنفذ فنفذت منه، وكان سهماً سدد إلى الصورة التي في ذهن عمر بن عبيد الله، فخدش جمالها. وعائشة بدأت برفع عمر في شجاعته إلى عنان السماء، وأوهمته أنه قد نسي أن يذكر يوماً مهماً، فأنزلته إلى الأرض نزول دلو أمرس، إذا انقطع رشاؤه، ولعل حرارة حماس عمر أعقبتها برودة ثلج، ما أبرعها من زوجة.

بَهْجَةُ الشَّعْرِ (١)

للشعر بهجة لمن يعرفونه جيداً، ومن يتذوقونه،
ومن يلتصقون به، ويتمتعون بما يأتي منه من لذة،
وكان الأولون لا يلقونه إلقاءً عفواً كما يقال النثر
من خطب وحكم وأمثال، وقصص وعلم، وإنما
يغنونه وينغمونه، وكلما صار المنشد للشعر صوته
حسن زاد تأثير الشعر، وتبين جماله، وطفحت
ببهجته.

ولعل قولهم: أنشد فلان، جاء من أنه قيل بلحن.
وبعض المولعين به، والمتذوقين له، يجمعون
منه ما يجدونه مستجيباً لذوقهم، وقريباً من
فهمهم، يسعون إلى جمعه، وبثه، ومحاولة

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١١، السنة: ٢٧، ذو
الحجة ١٤٢٣ هـ الموافق فبراير-مارس ٢٠٠٣ م.

المشاركة بينهم عنه مع من يماثلونهم في تبجيله،
والحماس له. والشعر له سيطرة على النفوس
في أي لغة كان، يشد انتباه السامع، ويرقص
قلبه، ويضطرب وجدانه، ويسيطر على شعوره،
ويدعوه إلى عمل ما، لم يكن ليعمله لولا الشعر
وتأثيره، فهو أحياناً نوع من أنواع السحر، بل
السحر بعينه.

وإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها
التقطها، فإن الشعر الجيد تضرب له أكباد الإبل،
وتطوى له المهامه، وتخرق الصحاري والقفار،
يقطعها المتعلق بشيء منه ليأخذ أبياتاً من الشاعر
نفسه، أو من راوية عنه.

والشعر الجيد الذي يحظى بمثل هذه العناية
مرحب به في كل عصر، ومن كل عصر، فقد
يخرق العصور، ويتخلل طيات الزمن دون أن

يضعف فيه جانب، أو تبهت صورة، ويبقى تأثيره طاغياً، ورونقه باهياً، وبريقه زاهياً، بل إن شعر بعض الشعراء السابقين المجيدين اتخذ في أوقات لاحقه ومتابعة محوراً لمقاييس جودة الشعر من المحدثين ذوي الذوق السليم، الصافي من تأثر الانحراف في الذوق والفكر.

سحر الشعر وجاذبيته، وتأثيره، وإرخاص الغالي من أجله، واستقلال الجهد فيه يأتي في مواقف دونت في كتب الأدب، بعضها بجائزة مالية، وبعضها بجائزة معنوية أطربت الشاعر، ورفعت رأسه بين منافسيه. وهذه أبيات تمثل، خير تمثيل، مدى تقدير بعض ما يهز من الشعر، الملئ بالمعاني والصور، مما خلا من التعقيد والتوحش:

قال مصعب بن عبدالله الزبيري: حدثني عروة

ابن عبدالله قال:

كان عروة بن أذينة في داري بالعقيق، فسمعتة
ينشد لنفسه هذه الأبيات، وذكر الأبيات التي
أولها:

إن التي زعمت فؤادك ملها

خلقت هواك كما خلقت هوى لها

قال: فأتاني أبو السائب المخزومي، فقلت له

بعد الترحيب به:

ألك حاجة؟

قال: نعم، أبيات لعروة بلغني أنك سمعته

ينشدها.

فأنشدته الأبيات، فلما بلغت قوله:

فدنا وقال لعلها معذورة

في بعض رقبتها، فقلت لعلها

طرب، وقال:

هذا والله هو الدائم الصبابة، الصادق العهد،
لا الذي يقول:

إن كان أهلك يمنعونك رغبة
عني فأهلي بي أعز وأرغب
لقد عدا هذا الأعرابي طوره، وإنني لأرجو أن
يغفر الله لصاحب هذه الأبيات بحسن الظن
بها، وطلب العذر لها.

قال: فعرضت عليه الطعام، فقال:
لا والله ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعاماً
حتى الليل. وانصرف.

(٢٣٨ تحفة العروس، للتيجاني)

قناديل أقوال^(١)

لا يمل القارئ في التراث من تتبع جمل الحكم الصائبة، وهي فيه ماثورة، تضيء مثل نجوم في سماء صافية، تهدي للتي هي أقوم، وتنير الطريق إلى الأمثل، لأنها نتاج فكر، وعصارة تجربة، ونتيجة تبصر وتدبر، تأتي عن ملاحظة دقيقة، من عين مبصرة، وعقل واع، وذهن صاف. يتخذها الناس نبزاً يسرون في هديه، في قول الحكمة المجمل معان كثيرة، ولصدقها، ولأنها نافعة لكل زمن، ومفيدة في أكثر من حدث، وتنطبق على كثير من المواقف، التي يتعرض لها الإنسان في حياته، بقيت حية.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١٢، السنة: ٢٧، محرم ١٤٢٤هـ الموافق مارس/ أبريل ٢٠٠٣م.

الحاجة إلى الحكم ماسة، يقدرها العاقل،
ويطلبها المجرب، ولا يخرج عن طوع منطوقها
من أراد الحسنى. الرشد فيها يعطيها الالتفاتة،
والبوح المتقن يجعل الخروج عن مراميها مظهر
نزق وخرف. لهذا جاءت الجملة الصادقة:
الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها.
لأهميتها لم يحدد المصدر الذي يجب أن تؤخذ
منه، لأنها قطعة نقد ثمينة، قيمتها فيها، ليس
فيمن أخرجها من منجمها. قد تأتي من العاقل،
وقد تأتي ممن ليس عاقلاً، ولهذا جاء القول
المتداول: كلمة عاقل في رأس مجنون. قد تأتي
من الكبير أو من الصغير، وقد تأتي من
الصديق، وقد تأتي من العدو. هي ليست ملكاً
لأحد، هي مشاعة في الاكتشاف وفي الالتقاط،
وفي الاستفادة منها.

تأتي الجملة مختصرة، ولكنها تختزن في داخلها ثروة عظمت في العقل الذي قيلت فيه، ولو فصل ما فيها من مرام لأوفت على محتوى الكتاب، لأنها مثل الماء المناسب لا تقف حتى ينقطع ما يغذيها، والحكمة تغذيها في داخلها، لأنها تقوى بالتطبيق، والتطبيق يقنع، ومن اقتنع داوم على الامساك بما وجد فيه الفائدة. وكلمات الحكمة في المعتاد فيها جاذبية، لتركيز المعاني في أجزاءها، وعدم الحشو، والبعد عن الغموض، مع دقة إصابة الهدف، وحسن التصويب إلى أن القصد ذو فائدة جلى.

وقد عرف أناس بصفاء الذهن، ودقة الملاحظة، وحسن التملى، وصواب الاستنتاج، والقدرة على استنباط الأفكار المضيئة، والمرامي الصادقة، وعلى حسن صياغة ما تتوصل إليه

أذهانهم، فتأتي منهم الحكم، ويعرفون بها،
وتعرف بهم. ولاشتهارهم بذلك يعزى إليهم
أحياناً ما قد يكون جهل قائله، فيقبل، لأن فيه
روح قولهم، وصبغة ما تعود منهم.

اشتهر بعض الرجال البارزين في الجاهلية
والإسلام. وسجل لهم كثير من الحكم التي
قالوها، أو نسبت إليهم وهم بها أولى. واستمر
السير على هذا الطريق، ولم ينقطع شريط
الحكمة، ولا الاستشهاد بالقديم منها، لأنها جزء
من حياة الناس المحب، وصورة تبين كثيراً من
أوجه مجتمعهم في سيرهم، وفي صلة الناس
بعضهم ببعض. لا يعدم المرء عند المكسب أن
يجد حكمة تحكم ما أوصله من عمل إلى هذه
النتيجة، ولا يعدم عند الخسارة أن يجد حكمة
لو انصاع لتحذيرها لما وقع فيما وقع فيه من

نقص. فالحكمة في الحقيقة صادقة. والحكمة
يجب أن تقبل، وأن تقدر، وأن تراعى.

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من النابهين
في هذا المجال، وكلماته سهام لا تخطئ الهدف،
وهي نتاج فكر صائب، وذهن صاف، وعقل
متدبر متبصر، ونظر حاد، وقول متأنٌ وقد روي
عنه بعض الحكم، التي لا يسع المرء إلا أن يقف
عند كل واحدة منها وقفة طويلة متأنية، والسعيد
من اتخذها منهاجاً، يأتمر بما تأمر به، ويتجنب ما
تحذر منه. وهي واضحة وضوح الشمس في
رابعة النهار. هدفها واضح، وصوتها عال.
ولسانها حق، وهذا بعض منها، لمس جوانب
مختلفة من جوانب الحياة:

من كتم سره كان الخيار في يده. أعقل الناس
أعذرهم للناس. مر ذوي القربات أن يتزاوروا

ولا يتجاوزوا. قلما أدبر شيء فأقبل. أشكو إلى
الله ضعف الأمين، وخيانة القوي. لو أن الشكر
والصبر بعيران ما باليت أيهما أركب. من لا
يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه. ما الخمر صرفاً
بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

(زهو الأداب وثمر الألباب: ١٦٣١)

كل من هذه الأقوال قنديل منير، أحكم فيه
القول عن أمر من أمور الحياة، وهي أقوال فيها
متعة للمتمعن، وسلامة للمتبع.

طبع وصنعه^(١)

إذا سار المر بطبعه، ومشى في ضوء مقدرته،
جاء منه ما يصور نفسه، ولا يزيد عن ذلك،
وقد يكون هذا مقبولاً من الناس، ولا يطلبون
منه غير ذلك، إلا عند مقارنته بمن هو أفضل
منه. ونظرتهم هذه تأتي من باب (لا يكلف الله
نفساً إلا وسعها). وغالباً عند المقارنة يزيد حظّه
من التقدير، أو ينقص، يرتفع شأنه أو ينخفض،
فإن انخفض انصرفوا إلى غيره، وإن ارتفع
أقبلوا عليه، وكانوا سبباً في استمراره في عرض
ما تنتجه طبيعته في صنعه.

ولكن الطبع لا يكفي أحياناً، خاصّة فيما وصل

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١٣، السنة: ٢٧، صفر
١٤٢٤هـ الموافق أبريل ٢٠٠٣م.

فيه الناس إلى ذوق رقيق، وقواعد رصينة، وعرف
مكين، حينئذ يكون التطلع إلى ما يتحقق فيه
ذلك، ويدهش أهل الصنعة، ولهذا جاء التعلم
وأهميته، والسعي وراء الحكمة أين وجدت،
ورخص التعب ولو في المسير لطلب المعرفة في
«الصين». ولهذا ارتفع شأن المعلمين، وصار
الإقبال على بضاعتهم، واتباع إشارتهم، وتنفيذ
أوامرهم، مهما كلف الأمر من جهد ومال ووقت.
لأن الكمال جذاب، والوصول إليه هدف ملح.
وبقدر ما يكون التراخي في هذا السبيل يكون
النقص، وبقدر بذل الجهد والعزم يصل المرء إلى
ما يريح ويربح.

ومع هذا فالصنعة لا تكتمل جوانبها، ويزكو
نتاجها، إلا بتكرار ما يأتي من الطبع، يعضده
عقل نابه الإدراك، قوي الملاحظة، حسن

التقدير، حتى ينصقل العمل بما لوحظ من تكرار التجربة، والعثور مرة، والقيام من العثرة وسماع النقد من أهل الحقل، وأخذ ملاحظاتهم بالقبول.

هذا جال في ذهني وأنا أقرأ بعض نتاج الفكر في عصرنا هذا، وكيف أن الناشئ يسير مع طبعه، وبما كسبه من ثقافة ضحلة، فيرى أنه قد وصل وهو لا يزال في أول الطريق، وكان عليه أن يخزن من الثقافة ما يعطيه الملكة المطمئنة. والشعراء يأتون في هذا في المقدمة، فالشاعر اليوم يكتفي بالرغبة في قول الشعر، مضافاً إليها قراءات متقطعة لبعض ما يكتب في الصحف من ذلك، ويكتفي بهذا، ولا يقرأ شيئاً عن الشعر في كتب الأدب والنقد، ليتسلح بما يقيه من عثرات كثيرة، معرض مثله لأمثالها. هذه الرغبة في قول الشعر

يجب أن تنمى، وتغذى بالعلم في فن الشعر،
ومجاري الفكر فيه، وألاّ يتسرع الشاب في ملء
نفسه بالثقة إلى الحد الذي يطبق معه الكتاب،
ويقول: وصلت.

وقد وجدت نصا يصلح في هذا المقام، في
رواية للبحثري في أول قوله الشعر، وهي تعبر
عن هذه الفكرة خير تعبير:

قال الوليد بن عبيد البحثري:

كنت في حدائتي أروم الشعر، وكنت أرجع
فيه إلى طبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه،
ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام،
وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه،
فكان أول ما قال لي:

يا أبا عبادة، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم،
صفر من الغموم، واعلم أن العادة جرت في

الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو
حفظه في أوقات السحر، وذلك أن النفس قد
أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم.
وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً،
والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة،
وتوقع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق،
فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياذ فاشهر
مناقبه، وأظهر مناسبه، وابن معالمه، وشرف
مقامه، ونضد المعاني، واحذر المجهول منها،
وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن
كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد،
وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل
شعرك إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك
لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن
الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك

بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن
العلماء فاقصده، وماتركوه فاجتنبه، ترشد إن
شاء الله.

قال: فأعملت نفسي فيما قال، فوقفت على
السياسة.

(زهر الآداب، ١ / ١٤٧ المكتبة العصرية)
البحثري بدأ بالطبع، وكان عمله في حدود
طبعه، ثم تعلم الصنعة من أبي تمام، المجرب
الصناع، وقد أقر لصاحب الفضل بفضله،
ولهجته فيما روى لهجة المفاخرة بأستاذه.

الأنانة والرأي الفطير^(١)

تقع الفكرة على غصن شجرة الفكر، فتصطاد، فرحاً بما فيها من لون معجب، وجاذبية أخاذة، ثم تشاع على أنها بنت فكر، ونتاج ذهن، الفخر بها أنها سنحت فأمسك بها، وأصبح يملكها من مسكها، ومن حقه أن يدلي بها، ويطلب العمل بها، وإنفاذ ما جاء بها، سواء كان بدء عمل، أو تحسب جانب في عمل سابق، أو مظهر جمال فكري، أو بهجة نفس وقد يبقى الأمر مع الإعجاب، وتستمر الفائدة، ويبقى الاتباع أو الاقتداء، لأن التوفيق حليف المفكر في هذه الواقعة.

(١) نشرت في «المجلة العربية» عدد ربيع الأول ١٤٢٤ هـ الموافق مايو ٢٠٠٣.

ولكن الأمور ليست دائماً في نفعها مع الفكرة الأولى، فقد تكون جاذبيتها أعمت عن جوانب منزوية، كانت في الهامش وكان حقها أن تكون في المتن، وكانت مستترة، وكان من حقها أن تكون ظاهرة، ولكن بريق الفكرة الأولى غطى عليها، ولا يعرف عنها إلا بعد الفكر العميق، والتبصر الدقيق، فتظهر بذلك واضحة جلية، يغطي نورها، وهي التالية، بريق الأولى، ويعلو ثمنها، وكان بخساً، وتنال الخطوة، وكانت مهمة.

لهذا حث الحكماء على ترك الفكرة حتى تخمر، ويتخلص الفكر برهة من الزمن من الصورة الأولى الطاغية، وينفتح مع الوقت، والتأني، وإدارة الأمر على وجوهه، باب يأخذ في الاتساع حتى لا يبقى في لوحة الصورة

غيره. ويدخل تعديل على الصورة الأولى، التي جاءت بداهة، وقد يتلو التعديل تعديل ثان، وثالث ورابع، حتى لا يبقى من الصورة الأولى إلا (كباقي الوشم في ظاهر اليد).

وحذر الحكماء من العجلة في الحماس للفكرة الأولى، لأن في هذا مزلقاً، جزءاً كبيراً منه عاطفة، قد يدخل المرء في موقف لو فكر في الأمر لما اختاره، ولما هياً لنفسه السبيل في الوقوع فيه. وكلمة العماد الأصبهاني في هذا الأمر مشهورة، وكيف أن الإنسان إذا أعاد الفكر فيما كتب، أخذ ينقضه، ويرى في غيره ما هو أحسن، وسواه يستحسن، وخرج بحكمة أن هذا دليل على نقص البشر.

واليوم، وأنا أقرأ في كتاب (زهر الأداب وثمر الألباب)، للحصري القيرواني، وجدت ما يدل

على أنه اختار نصاً في هذا المعنى، وهو الروية
والأناة في إشاعة ما يكتب، وينقل عن أحد
الأشخاص، ولعله واحد من رؤساء الكتاب
يقول فيه:

وقال آخر:

إن لا ابتداء الكلام فتنة تروق، وجدة تعجب،
فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت
النفس، فليعد النظر، وليكن فرحه بإحسانه،
مساوياً لغمه بإساءته، فقد قالت الخوارج
لعبدالله بن وهب الراسبي:

نبايعك الساعة فقد رأينا ذلك.

فقال: دعوا الرأي حتى يبلغ أناته، فإنه لا خير
في الرأي الفطير، والكلام القضيب (المرتجل:
جزء ١ / ١٤٨).

الفتنة التي أشار إليها المفكر، صاحب النص،

هي الجاذبية التي تقع على قلب صاحب القول،
فيرى أن جمالها كامل.

فإن لم يعد النظر فيها مرات، ويتحرى ما قد
يكون متصلاً بها مما يحسنها أو يكملها، جاءه
من يفاجئه بالعيوب التي لم تخطر على باله،
وإن كانت الفكرة لفظاً فقد تضيق فرصة
الاعتراض، أما إذا كانت مكتوبة، وأصبحت مما
يتداول، فهنا مأتى توقّي الحذر بأعلى درجاته،
وقد قيل:

الكتاب يتصفح أكثر مما يتصفح الخطاب، لأن
الكاتب مُتَخَيِّرٌ، والمخاطب مُضْطَرٌّ، ومن يرد
عليه كتابك فليس يعلم أأسرعت فيه أم أبطأت،
وإنما ينظر أأخطأت أم أصبت، فأبطأوك غير
قادح في إصابتك، كما أن إسراعك غير مغط
على غلطك. (١٤٩/١).

ومما يضيف إلى فضيلة عدم إشاعة أول فكرة
ترد إلى الذهن، وفضيلة التروي، وتقليب
الأمر على وجوهها، وقلب كل حجر لمعرفة
ما يخبئ تحته، أن الفكرة قد تكون طرأت في
وقت ليس أحسن الأوقات للتفكير، وأن
أضواء الفكر تشعّ أنواراً كاشحة في وقت
آخر.

مأزق ومخرج^(١)

قصة قرأتها في كتاب: الهفوات النادرة، للصابي (ص ٥٤) جعلت الأفكار تتداعى في ذهني، ولا أدعي أن التداعي كان منتظماً، وإنما جاء حسب التتوءات التي في القصة، وأول هذه الأفكار أن الهفوة التي وقع فيها بطل القصة كانت فعلاً مقلقة له ولزوجته، لأنها كانت سوف تؤدي إلى طلاقها منه، وفراقها إياه، وهو وإن كان يحق من هذه الزوجة في بعض الأحيان لما يأتي منها من طلبات، إلا أن الأمر كما يبدو لم يصل إلى حد يؤدي إلى الطلاق والفراق الدائم.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١، السنة: ٢٨، ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ الموافق يونيه ٢٠٠٣ م.

والقصة تحاول أن تقسم الذنب في قيام المشكلة
قسمين متساويين بين الرجل وزوجته، تجعل
الزوجة هي البادئة في وضع اللبنة الأولى، ولا
تخفف عنها في أن الزوج ملوم في قبول
الاقتراح، وتؤجل قسطه في الأمر إلى وقت
لاحق عندما يأتي موجب يضعف أعصاب
المقاومة عنده، فيظهر ما بطن وينكشف ما كان
تحت غطاء، ويوقظ ما كان نائماً، تحت ستار
الإغراء في كسب رزق يجعله في حال خير من
الحال التي هو فيها.

والفكرة الثانية التي أوحى بها نتوء ثان في
القصة، أو حزن مرتفع في سهلها دل عليها، هي
أنه في هذه الحقبة الرزق في الشام أوفر منه في
العراق، رغم أن العراق ينام في حضن نهري
تحف بهما أرض تنبت الذهب، وقريب من

مسالك التجارة في الهند والصين.

وما دمنا في أمر المعاش والرزق، وهو
بالاقتصاد أقرب فإن أمراً آخر يرفع رأسه، وهو
المبلغ الذي كسبه الرجل في رحلته، واشترى به
بغيراً، والمبلغ ثلاث مئة درهم، ومنطوق العبارة
يدل على أنه دفعه كله ثمناً للناقة الفارهة، كما
جاء في الوصف، ثبت فيما بعد أنه كثير عليها،
لأنها زعرة، وليس أسوأ من الدابة الزعرة
الجفول المضطربة. وقد يستدل من هذا على
جهله، لفقره، بالدواب، والجيد منها والرديء،
وهي أمور يعرفها الإنسان معتاد ركوب
الدواب، ومقتنيها.

ثم نأتي للفكرة الثالثة، وهي ثالثة الأثافي،
والداهية العظمى، عدوة الإنسان الأولى، وهي
فقد الأعصاب والحنق، والبحث في داخل

النفس عما يهدى الأعصاب الثائرة باللجوء إلى
أمر أبعد ما يكون في إغاظة من تسبب في هذه
الإثارة، ولأنها زوجته، والزواج هو الرباط
الوثيق الذي يربط بينهما، وأبعد ما يمكن أن،
يهدمه هو الطلاق، فَقَرَّبَهُ بحلف أصبح حبلاً
التف على عنقه، مما احتاج إلى حيلة تخلصه
منه، وأي حيلة!

والغضب كما قيل بحق، ريح تهب على
سراج العقل فتطفئه، ويأتي بسببه تصرف قد
يكون مؤلماً، وقد يكون مضحكاً، هناك مثل عند
الإنجليز يقول: قطع أنفه ليغيظ وجهه، من
المتضرر؟

أعرف شخصاً كان يجلس خارج بيته يتعلل
مع أصدقائه، فأرسلت زوجته ابنها ليخبره أنها
لم تستطع أن تحلب العنز، لهروبها منها، ولم

تفلح مطاربتها، وأنها لم تصل المغرب بعد،
وعلى هذا القياس فإنه سيدخل وقت صلاة
العشاء وهي لم تصل المغرب. فقطع الرجل
جلسته مع أصدقائه وقال لزوجته إذهبي وصل،
وأمسك بالعنز، وذبحها، وسلخها، ووضعها في
طشت في قبلة زوجته، والاعتبار يأتي عندما
يطلع النهار.

وهناك في القصة نتوءات أخرى تستحق أن
يوقف عندها ولكن الحيز لهذه المقالة في المجلة
لا يتحمل المزيد، وإلا اضطر الطابع إلى تصغير
الحرف، وهو ما يرعبنى، فإلى القصة.

ذكر حماد بن اسحاق عن أبي بكر بن عياش
قال :

كان بالكوفة امرأة لها زوج، قد عسر عليه
المعاش، فقالت له:

لو خرجت فضربت في البلاد، وطلبت من
فضل الله تعالى، رجوت أن ترزق شيئاً.

فخرج إلى الشام، فكسب ثلاث مئة درهم،
فاشترى بها ناقة فارهة، وركبها قاصداً الكوفة.
وكانت زعرة، فاضجرته، واغتاظ منها، ومن
زوجته، وإخراجه، وتقطيعه بأسفاره، فبدر
لسانه فيها بأن حلف بطلاق امرأته أنه يبيعها يوم
يدخل الكوفة بدرهم!

وسكن من حرده، فندم أشد ندامة، واغتم
أعظم غم، وقدم الكوفة، فقالت له زوجته:
أي شيء جئت به معك؟ ورأته مغتماً.
قال: لا شيء.

فقالت له: فهذه الناقة لمن؟

قال: لا أدري لمن تحصل له.

وحدثها بحديثه، وما جنى عليه حرده، وجر

لسانه.

فقلت له: أنا أحتال لك حتى لا تحنث ولا تخيب.

وعمدت إلى سنور، فأخذتها، وعلقتها في عنق الناقة، وقالت:

أدخلها السوق، وناد عليها: من يشتري هذه السنور بثلاث مئة درهم، والناقة بدرهم واحد، ولا أفرق بينهما.

فدخل السوق، وفعل ذلك. فجاء أعرابي يدور حول الناقة، وجعل يقول:

ما أسمنك، ما أفرهك، ما أحسنك، ما أرخصك! لولا هذا المشارك الذي في عنقك!
ما رأي أولي العلم شرعاً في هذه الحيلة؟

عضد على عضد^(١)

عندما تعضد عضد أخرى، وتسندها، يأتي من ذلك قوة لم تكن لعضد واحدة، والمجتمع أعضاد مفردة، فإذا اجتمعت تكون منها مجتمع قوي. والمجتمع المتعاضد فيه الصلاح، ونعمة السعادة، وتنتشر فيه البهجة والسرور.

في الأزمان الماضية كانت المجتمعات تجمعات صغيرة، في الغالب تجمعها رابطة واحدة، إما رابطة الأسرة التي تكبر مع الزمن، أو رابطة القبيلة التي كانت في يوم من الأيام أسرة، فأصبحت فيما بعد أسراً، تقوم بينها عادات حميدة، نتيجة معرفة كل فرد للآخر، فيكون

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١٦، السنة: ٢٨، جمادى الأولى ١٤٢٤هـ الموافق يوليو ٢٠٠٣م.

الإحسان معروفاً لكل فرد في المجتمع، ومقدراً، ومشاداً به، والتقصير مثله ينتشر انتشار النار في الهشيم، فيصبح صاحبه عرضة للانتقاد، وعقاب المجتمع الإيجابي والسلبي.

نتج عن هذا تكافل بين أفراد المجتمع، يعطف الجار القادر على الجار الفقير، ويعطف الصحيح على السقيم، ويعطف القوي على الضعيف. يقوم هذا بخدمة هذا فيما يقدر عليه، ويقوم هذا بالالتفات لهذا فيما يتقنه. وتبرز في هذا المواساة وقت الحاجة، حتى لا يشعر من نزلت به نازلة بثقلها، لما يحمل عنه جاره أو قريبه بعضاً من هذا الثقل.

كانوا في مجتمع المدينة المنورة أيام الخلفاء الراشدين، إذا ذهب رب البيت للغزو تكفل جاره أو قريبه بحاجة أهله مما لا يقضيها إلا

الرجال، وتسلسلت هذه العادة الحسنة، فأصبحت عرفاً تلقاه أسرة من سافر للغزو أو غيره، حتى لو كان للتجارة، وطلب الرزق.

وهذا زيد بن الحارث الياامي أو الأياامي يحيى هذه السنة الحسنة، فيتفقد جيرانه في وقت يشعر أنهم في حاجة إلى المساعدة:

كان زيد الأياامي، إذا كانت ليلة مطيرة، أخذ شعلة من نار، فطاف على عجائز الحي، فقال:

أو كف عليكم البيت؟ أتردن ناراً؟

فإذا أصبح طاف على عجائز الحي، فيقول:

ألكن في السوق حاجة؟ أتردن شيئاً؟

(التذكرة الحمدونية: ١/ ١٦٦)

وقد رأينا مثل هذا في مدننا وقرانا، ورأينا المرأة تضع إناءاً أو فوطة وزنبيلاً عند الباب، خارجه، وقد تضع القادرة مالاً، وقد لا تضع مالاً إذا لم

تكن قادرة، فيمر جار فيأخذ الزنبيل بما فيه،
ويضع فيه من المؤونة ما اختاره لبيته، ويعيده
لصاحبه، فلا تشعر المرأة الوحيدة بهم الخروج،
والتسوق، خاصة أن خروج المرأة في تلك الأيام
إلى الأسواق يلفت الأنظار، ويعرضها أن تكون
مضغة في الأفواه، خاصة إذا كثر خروجها.

أما اليوم فلا يكاد الجار يعرف جاره، أو يعرف
حاجته، أو يعرف عن حاجة أهله، أو الجهة التي
سافر إليها جاره. وكيف يعرف ذلك. وهو لا
يعرف اسمه.

قوة الحجة^(١)

قوة الحجة في البدء تأتي من الأناة والتدبر، وحسن التخطيط. وقوة الحجة في الرد تأتي من ضعف حجة البادي بالقول، وغالباً ما يكون هجوماً، وقوة الحجة حينئذ تأتي مفاجئة، لأن فيها سرعة بديهة، وانتهاز فرصة. وأسباب ضعف الحجة متعددة وعلى رأسها الانفعال، وعلى رأس الانفعال الغضب، والغضب يعمي المرء عن رؤية الطريق، وما فيه من حفر وأشواك، لا يعرفها السائر فيها إلا بعد أن يقع في حفرة، أو تخرق قدمه أشواكها، والغضب غالباً يؤدي بمن صار مطية له إلى الهلاك، أو على الأقل الندم.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١٧، السنة: ٢٨، جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ الموافق أغسطس ٢٠٠٣م.

أما أسباب القوة فهي أولاً الفطرة التي فطر الله عليها بعض الناس، فجعلهم أهل تودة، وأصحاب أناة، وأخوان ترو، يقلبون الأمور على وجوهها، ويديرونها على جنوبها، يتحسسون ما ظهر لهم منها، ويتعمقون فيما بطن، ثم بعد ذلك يتصرفون عن علم، ويختارون الطريق عن فهم، ويقدمون عن خبرة، يقدمون وهم مليئون بالثقة، وتطفح نفوسهم بالاطمئنان، فيأتي ما يأتون ناجحاً كاملاً، ويصلون إلى هدفهم دون جهد، ودون ضياع وقت، مع انبهار ممن يراقبهم، ويتتبع تصرفاتهم. ولا تأتي قوة الحجة إلا مع حسن نية، لأن في حسن النية إشعاعاً خفياً يمهد لصاحبها النجاح، ويكفل له الفوز، أما سيء النية فخلافه، أخلق به أن يخفق، وإن نجح فنجاحه ناقص، أو إلى

حين، ولهذا واكب حسن النية النجاح و واكب
سوءها الإخفاقُ.

في القصة الآتية أخفق الخليفة المهدي في أن
يوقع بين اثنين من رجال دولته، لأن نيته في ما
حبل به للقاضي لم تكن حسنة، ولا بد أن
القاضي كان عمله في جنب الله، فنال العون منه
جلا وعلا، وألهمه الحجة الدامغة التي ألجمت
المهدي، وأحبطت عمله، وجعلته، وهو الخليفة،
في المكان الأعلى، في موقف ضعيف أمام
القاضي، وهو أحد مناصبه، وناصية عمله في
يده، وهذه هي القصة: قال المهدي لشريك
القاضي، وعنده عيسى بن موسى: لو شهد عندك
عيسى بن موسى كنت تقبله؟

وأراد أن يغري بينهما. فقال شريك:
من شهد عندي سألت عنه، ولا يسأل عن

عيسى غير أمير المؤمنين، فإن زكاه قبلته.
فقبلها عليه، لعل المقصود فأمرها له، لأن
الضربة قاضية، ولكن الفقه هو الفقه، والفقيه
هو الفقيه، وهذه بضاعة، لا يقايض إلا بها،
والخليفة جاء طالباً هذه البضاعة، فيأخذها
موفقاً.

(المصون في الأدب ١٨١).

وسوء النية ظاهر في قصة أخرى، وهذه المرة
الزلة جاءت من القاضي، والقاضي ليس
معصوماً من الخطأ، وضرر القاضي ما كان في
نفسه من غضب على أحد المتداعين، وهذا
الغضب ضلل القاضي عن الطريق السوي،
وجعله يقف موقفاً ضعيفاً أمام الخصمين،
ويلغي المحاكمة بأكملها، نتيجة سوء تصرفه،
الذي جلبه سوء نيته. ومن زرع شوكة حصد

شوكاً، والقتاد لا يأتي منه إلا الشوك.

وهذه هي القصة:

تقدم السيد الحميري إلى سوار بن عبد الله، مع خصم له، فقال سوار للسيد في بعض خطابه؟ وكان مغیظاً علیه، لسوء مذهبه، وهجائه له: يابن اللخناء.

فقال السيد: ابن اللخناء خصمي هذا.

فقال الخصم: خذ لي بحقي.

فلم يقدر القاضي على ذلك، لأن عليه مثل ذلك.

فقال: قوما.

(المصون في الأدب: ١٨٣)

ما أغنى سوار - رحمه الله وعفا عنه - عن هذه الكلمة، وهي كبيرة، وزلة، ولا داعي لها، ولا مكان في هذا المقام، وإنها لم توجه للسيد الحميري، وإنما لأمه في المقام الأول، وله أيضاً

عن هذا الطريق، وقد تكون أم السيد طاهرة
عفيفة، وليس للقاضي عليها مأخذ مثل مأخذه
على ابنها، ولكن الله لم ينسها، فلمس القاضي
عقاب الله - سبحانه وتعالى - اللين في الدنيا.

مرامي اللباقة^(١)

حسن الخلق، ومعه اللباقة، واحترام الناس،
والتأدب معهم، طبيعية يضعها الله سبحانه
وتعالى في بعض الناس، وغريزة يزرعها فيهم،
قد تكون في الغني، وقد تتوافر في الفقير، وقد
توجد في المتعلم، وقد ترى في من لم يتعلم،
وقد ينالها الرجل، وقد تكون من نصيب المرأة.
ومن وجدت فيه بذرتها فإنها تنمو مع الوقت،
وتنصقل مع مرور الأيام، ومع معاناة الأحداث،
والاكتواء بنيران تجارب الحياة.

مثل هؤلاء الناس يكونون بهجة في المجتمع،
يضيئون جوانبه، وينشرون فيه الطمأنينة،

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١٨، السنة: ٢٨، رجب

١٤٢٤هـ الموافق سبتمبر ٢٠٠٣م.

والشعور بالأمان، ويقفون عمالقة للإقتداء بهم
من قبل الآخرين، ممن يقتنعون بالسير على
منوالهم، وما يأتونه، وما يذرونه، ولا يخلو
مجتمع من المجتمعات ممن يشار إليهم بالبنان
في هذا الأمر، وتختلف المجتمعات فقط في
كثرة هؤلاء أو قلتهم.

وفي التاريخ سجل حافل بأمثال هؤلاء، ينقله
اللاحق عن السابق بفخر وإشادة، اعترافاً بفائدة
هذا الخلق، وهذا الصفاء في النفس والروح.
وقد تتبع بعض الأدباء ما جاء من أقوال في هذا
الصدد، فكانت الحصيلة عناوين مضيئة لفعل
أصحابها، كشفت عن نقاء في السريرة، وبعد
عن الأثرة، وعن تبجيل الآخرين، وتفضيلهم،
وتأدب معهم.

وأكثر ما يسجل من هذا ما يأتي في مجالس

الحكام أو العلماء، ففيها المحك للعقول،
والكشف عن طبيعة الأفهام والنفوس، ولأن في
رواية ما يدور هناك فخر للراوين، ودليل واضح
على مجالستهم هذه الصفوة من أفراد المجتمع.
والحصيلة مضمونة لأن الحكام والعلماء هم
خير من يقدر أمثال هذا النتاج الخير، والعطاء
الحسن.

ومن الإضاءات المعروفة، بإعجاب، قول
العباس بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - عندما
سئل: أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه
وسلم؟

فلم يتسرع بالجواب، ولم يبادر بالقول،
فيقول: أنا أكبر، لأن تحت كلمة أكبر معان
أخرى غير كبر السن، فهناك كبر المقام عند الله،
وعند الناس، ولم يكن العباس فيهما أكبر من

رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهذا اقتضى
أدب العباس أن يقول:

هو عليه الصلاة والسلام أكبر مني، وأنا ولدت
قبله.

اجاب العباس بهذا الجواب اللبق، على ذاك
السؤال المحدد، وأبعد عن الشبهة التي قد تلحقه
بسبب الجواب المباشر، الذي لم يمر ببوتقة العقل
الناضج، فلم يقل أنا أكبر منه.

وهناك إضاءة أخرى جاءت من مخاطب آخر
لحاكم يستوجب الأمر معه اللباقة، فسعيد بن
مرة الكندي من راجحي العقل، ناضجي الفكر،
سأله معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه -
أنت سعيد؟

قال: أمير المؤمنين سعيد، وأنا ابن مرة.
قسم سعيد بن مرة اسمه، فأعطى الجانب

المشرق لمعاوية، وترك لنفسه الجانب المعتم.
وللحجاج بن يوسف مع المهلب بن أبي صفرة
موقف مماثل إذ سأل الحجاج المهلب، أنا أطول
أم أنت؟

قال: الأمير أطول وأنا أبسط قامة منه.
هذا في زمن الأمويين، وهناك إضاءة في زمن
العباسيين، وذلك أن السيد بن أنس الأزدي
دخل على الخليفة المأمون فقال له:
انت السيد؟

فرد عليه بقوله: أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا
ابن أنس.

(المحاسن والأضداد: ٢٠)

ومن قمم اللباقة، وحسن الجواب هذه
الإضاءة:

قال رجل لمحمد بن الحنفية بن علي بن أبي

طالب - رضي الله عنه - : لم غرر بك أبوك في
الحروب، ولم يغرر بالحسن والحسين؟
فقال: لأنهما عيناه، وأنا يمينه فهو يدفع بيمينه
عن عينيه.

(المختار من نواذر الأخبار: ١٠٣)
إن هذا الرد اللبق المصيب، ذي الصورة المتقنة
الزاهية لا تأتي إلا من فكر صاف، صاحبه سليم
القلب حسن القصد والنية.

شذى العطر^(١)

رائحة العطر لا تخفى، فهي تصل إلى الأنوف، وتبهج النفوس، والخلق الكريم، والأمانة الحق من عطر الصفات في الإنسان، فهي لا تخفى إذا نزع عن زجاجتها وجاؤها. ومثل هذا الخلق يكون أساسه قائماً على فطرة سليمة، وطبيعة ممتدحة، يزيد لها مرور الأيام حسناً وإضاءة. لأن الفوائد ترى من هذا، وأول الفوائد رضى الله - سبحانه وتعالى - وما يراه الإنسان من توفيق في حياته يلزمه، ولا يعسر عليه أن يتتبع مصادر التوفيق وموارده، فيجد أنه أحسن في الأمر الفلاني، فأحسن الله

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد ٣١٩، السنة: ٢٨، شعبان

١٤٢٤هـ الموافق أكتوبر ٢٠٠٣م.

إليه في أمر يشعر معه أن بينهما صلة، وأن هذا الثواب جاء من ذاك العمل بعينه.

كان رجل يملك أرضاً صغيرة، وكان في حاجة للمال، لأنه كان يبني بيتاً، وكان هذا البيت هو أول بيت يملكه، واحتاج إلى مال، وكان على أهبة سفر، ويريد أن يعطي المقاول مبلغ خمسة وعشرين ألفاً من الريالات، قد آن وقت دفعها، فاضطر لبيع هذه الأرض رغم موقعها الذي يجعل من المؤكد أنها لو تركت إلى وقت آخر لجاءت بأضعاف ما عرضها به.

جاءه صديق سمع بعرضه أرضه للبيع، فاشتراها منه بمئة ألف ريال في زمن كان هذا المبلغ مجزياً لأمثالها، وكان ذلك بعد صلاة العصر، وبعد صلاة المغرب جاءه صديق آخر ليزوره، وقال له: سمعت أن عندك أرضاً في

الموقع الفلاني، وأنتك تود مضطراً إلى بيعها،
وأنا لي رغبة فيها، فكم تطلب فيها؟
قال صاحب الأرض: بعتهـا.
قال الصديق: بكم؟
قال صاحب الأرض: بمئة ألف ريال.
قال الصديق: هذا فيه غبن لك، إنها تساوي
أكثر من ذلك.

وأخذ هذا، يرفع المبلغ حتى وصل به إلى مئة
 وخمسة وعشرين ألفاً، والرجل يكرر له أنه
باعها، وانتهى الأمر، وهو يردد: مغبون.
فقال من غبنني؟ أنا الذي حددت المبلغ، وهو
ليس دائئاً، وأنا لست مدينأً، حتى يجبرني،
وبعتهـا على صديق حميم، له علي معروف،
هذه فرصة لي لرد بعض جميلهـ.
فقال الصديق: هناك مخرج: قل له إنك سبق

أن وضعت الأرض عند عدد من بائعي العقار،
وأنت اكتشفت أن أحدهم قد باعها، وأخذ
عربوناً، وهذا بيع ثابت لا يتراجع عنه.
فقال صاحب الأرض: ولكن هذا كذب، وأنا
لا أرضى أن أكذب.

فقال الصديق: إنه لن يعلم بهذا أحد.
فقال صاحب الأرض: الله يعلم، وأنت
تعلم، وأنا أعلم، وإذا لم يكن احترامي لنفسى
كافياً، ولا الثقة فيك مضمونة، فإن خوفي من
الله لا ثمن له. ولكن أنا عاتب عليك فالمتوقع
منك، وأنت صديقي، وصديق الذي اشتراها،
لو شعرت بنكوص منى أو تردد، نتيجة وهم
بأنى نادم على بيعها، وأريد أن أراجع أن
تذكرني أن هذا من أكبر العيوب فالخسارة ولا
النكوص عما أبرم. ثم ضع نفسك مكان

صديقنا، وتخيل أنه هو الذي كان يريد أن يقنعني بالتراجع عما يعد عهداً، فما هي نظرتك إليه. وددت والله أن هذا لم يأت منك، لأن مقامك في نفسي كان أعلى منه اليوم، بعد هذا الموقف، فقال الصديق بتأفف ويأس: إنك لن تصبح غنياً ما دامت هذه نظرتك للأمور. في هذه الحياة إما أن تأكل أو تؤكل.

فقال صاحب الأرض: لا أريد هذا الغنى الذي يأتي في وعاء من الكذب، وإخلاف الوعد. وأعتقد أن هذا المجتمع فيه خيرون، فها نحن اثنان، أنت اخترت نجدا وأنا اخترت آخر. بعد ما يقرب من أسبوع من هذه المساومة جاء خطاب من المقاول يذكر أن الحساب المقدم منهم، ويطلبون فيه خمسة وعشرين ألفاً، فيه خطأ فادح، فالحقيقة أن عندهم لصاحب

البيت الذي يبنى ما يزيد قليلاً عن خمسة وعشرين ألفاً، وهذا نتيجة أنهم سحبوا باسمه من شركة الاسمنت اسمتاً بما يقرب من خمسين ألفاً، طرحوا منا مالهم، وبقي له نصفها.

وهكذا من يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له. هذا الرجل تنازل عن ربح سيبقى على ضميره لو أخذه، وعوضه الله بمثله تقريباً، ونفسه راضية، والرجاء أن يكون مرضياً عنه بسببه.

هذه قصة في عصرنا الحاضر، ولننظر الآن إلى شذى عطر في زمن سابق:
مر عمر براع مملوك، فاستباعه شاة، فقال:
ليست لي.
فقال: أين الغلل؟

فقال: أين الله؟

فاشتراه، وعتقه، فقال:

اللهم قد رزقتني العتق الأصغر، فارزقني
العتق الأكبر.

(التذكرة الحمدونية: ١٤٧)

عمرو ومعاوية^(١)

معاوية بن أبي سفيان أول خليفة أموي، وعمرو بن العاص كان واليه على مصر، ولكل منهما حزب يحاول أن يجعل صاحبه يرجح على الثاني بإحدى ميزات العقل، ومن أجل هذا ألقت القصص، والقصص في ذلك الزمن أو بعده، هي الصحف السيارة والوسيلة الإعلامية المؤثرة. وقد حاولت أن أجد سبباً لهذه المنافسة بين الحزبين، التي قد لا يدري عنها أي من الرجلين، ومع هذا فحزب كل واحد على أتم درجات النشاط في إظهار الرجحان لهذا أو ذاك، إن بدت إثارة الجدل من مفاخرة أو غيرها،

نشرت في «المجلة العربية» في رمضان ١٤٢٤هـ، الموافق نوفمبر ٢٠٠٣، العدد ٣٢١، السنة ٢٨.

فالنهاية السارة والمرجحة تكون من غير من
أثارها، فعمرو بن العاص يلزم معاوية لموقفه في
موقعة صفين، واعتلاء كفة علي بن أبي طالب
-رضي الله-، ومحاولة معاوية الهرب، فيرد
معاوية له الصاع صاعين، ويذكره بموقفه عندما
علاه علي بالسيف فما أنقذه إلا كشف عورته،
والعرف يقتضي رفع السيف عنه في هذه الحالة.
وفي قصة أخرى يدخل على معاوية وعنده
إحدى بنياته، فيبدي عمرو ملاحظته التي لم
تكن في صالح البنات، ويرد معاوية ببيان
مخالف يظهر مزايا البنات.

وحاولت أن أجد سبباً لمثل هذه المنافسة بين
هذين الحزبين، فلم أجد سبباً مؤكداً، خاصة
وأن هذا عامل لذاك، ولم ينازعه السلطة، ولم
يطمح إلى عرشه، وبقي عاملاً مخلصاً حسب

النصوص المحققة. ترى أهي منافسة بين القطرين الشام ومصر، وأن هذه النصوص التي تتراوح في ترجيح إحدى الكفتين جاءت في عصر متأخر، بعد وفاة الرجلين.

على أي حال يمكن أن نقيس حدة المنافسة بين الحزبين بنص جاء في كتاب المصون في الأدب للعسكري، وهو نص واضح في هذا الشأن إذ أن الأمر ليس بين معاوية وعمرو، وإنما، زيادة في وخز معاوية، جاء بينه وبين غلام عمرو «وردان»، وبدأ الخبر، وكاد «وردان» أن يكون في حديثه إساءة أدب مع معاوية إلا أنه ختمه بخاتمة قد تكون وضعت من حزب معاوية فيما بعد:

«قال معاوية لجلسائه: ما بقي من لذاتكم؟

قالوا: ضروب.

فالتفت إلى وردان فقال: فأنت ما بقي من

لذتك؟

قال: النظر في وجه رجل كريم، أصابته من
دهره فاقة، فاصطنعت إليه فيها يداً.

فقال: أنا أحق بهذه منك.

فقال: أحق بها من سبق إليها، وأنت أقدر
عليها مني».

(المصون: ٢٠٨)

قوله: «أحق بها من سبق إليها» قول فيه إساءة
أدب، لأنها جاءت من غلام وال خليفة، ولكن
خفف وقعها قوله: «وأنت أقدر عليها مني»،
هذا صرف الذهن من الخلق والذوق إلى الحقيقة
والمنطق.

ولا تكاد تترك قصة لمعاوية إلا وتجد أخرى،
فيها السمة نفسها وهذه إحداها:

دخل عمرو بن العاص على معاوية وهو

يتغدى، فقال: هلم ياعمرو.

فقال: هنيئاً ياأمير المؤمنين، فإنني لم يبق فيّ
فضلة للأكل.

فقال معاوية: ما أقبح الرجل إذا ملاً جوفه
حتى لم يبق فيه فضلة.

فقال: ياأمير المؤمنين فيّ فضلة، وإنما أخشى
إلى أن أصير إلى ما استقبحه أمير المؤمنين».

(المختار من نواذر الأخبار: ١٠٤)

نصير عمرو بن العاص، الذي ألف القصة
ليرجح كفة صاحبه عمرو، نسي أن الفضلة التي
أشار إليها معاوية رؤي بقاؤها لمثل هذه الدعوة،
ودعوة الخليفة شرف، وليس لملء البطن. لو كانت
القصة هذه حدثت فعلاً لما غاب هذا عن فطنة
عمرو، وجلس على المائدة، واقتصر على لمس
الطعام، ولن يلومه أحد على ذلك، وعدم الأكل.

منطق ولا عدل^(١)

يبدو أحياناً بعض القول منطقاً لأول وهلة، خاصة إذا كان لصاحبه هوى، ولم يزن قوله، أو يقارنه برأي قد يكون أفضل. وما يبدو منطقاً قد يكون جذاباً، ويوحى بالقوة، حتى يفحص، ويمحص، فيتبين ضعفه، وبعده عن المنطق. ومثل هذا يأتي ممن هو أعلى إلى من هو دونه، من القادر إلى من لا يقدر.

وعقل الإنسان مكرم، يأتي بأفكار مدهشة، يصوغها صياغة متقنة، وأحياناً لا يبدو فيها الخلل لأول وهلة، ولا يأتي الصواب إلا من مفكر، أو متأن، يقلّب الأمور على وجوها، أو

نشرت في «المجلة العربية» في شوال ١٤٢٤هـ، الموافق ديسمبر ٢٠٠٣، العدد ٣٢١، السنة ٢٨.

من صاحب حاجة يجد أن هذا القول، ونتاج
هذا العقل، لا يصب في مصلحته، فيبحث عن
قول يعدل الكفة، وقد يأتي هذا من حرقه
أوجبتها الحاجة، الحاجة الملحة الكبرى، كما في
القصة الآتية"

دخل رجل على كسرى أبرويز، فشكى إليه
عاملاً غصبه على ضيعة له.

فقال له كسرى: منذ كم هي في يدك؟
قال: منذ أربعين سنة.

قال: فأنت تأكلها أربعين سنة، ما عليك أن
يأكل عاملي منها سنة واحدة.

فقال: وما كان على الملك أن يأكل بهرام جور
الملك سنة واحدة.

فقال: ادفعوا في قفاه (أي أخرجوه دفعاً).
فأخرجوه، فلما خرج أمكنته التفاته، فقال:

دخلت بمظلمة، وخرجت باثنتين.

فقال كسرى: ردوه، وأمر برد ضيعته، وصيره
في خاصته.

(المحاسن والأضداد: ٢٠)

وموقف آخر بين خليفة ووفد من رعيته،
جاؤوا بشكوى عامله عليهم، ولم يرد الخليفة،
وهو الحاكم، أن يقف بجانبهم، ويخذل عامله،
ولم يكن رده منطقياً، وإنما استعمل الخليفة حقه
في وجوب طاعة الرعية للراعي، وولي الأمر،
ولما رأى القوم أنه ليس هناك إلا هذا، أخذوا
على عاتقهم أن يكونوا هم أصحاب المنطق،
وبهذا استطاعوا أن يصلوا إلى هدفهم، والقصة
تجري هكذا:

«حكى أنه شكا أهل بعض الأقطار إلى المأمون
والياً كان عليهم، فقال لهم:

كذبتهم، فقد صح عندي عدله فيكم، وإحسانه إليكم.

فاستحيوا أن يردوا عليه قوله.

فقال شيخ منهم: يا أمير المؤمنين، قد عدل فينا خمسة أعوام، فاجعله في قطر غيره، حتى يسع عدله جميع رعيتك، وتربح الدعاء الحسن. فضحك المأمون، واستحيا منهم، وصرفه عنهم».

(عين السياسة: ١٨٤)

لم يكن فيما قاله المأمون منطق، ولم يكن فيما قاله القوم صدق، ولكن فيه منطق، وإن كانوا صدقوا فيما قالوا، فهناك رائحة عدل.

والحجاج تعرف عنه قوة الحجة، ولكنها أيضاً تأخذ بلبه عندما تأتي من غيره، ويقدرها حق قدرها، فهو صاحب صنعة، ويعرف قيمتها عند

غيره، وفي القصة الآتية غلب منطق على منطق،
والعدل هو الذي رجح الغالب من القول:
«وقف شقيق بن سليك على الحجاج، فقال:
أصلح الله الأمير، أعرنني سمعك، واغضض
عني بصرك، واكفف عني شرك، وإن سمعت
خطأ، أو زللاً، فدونك والعقوبة.
قال : هات.

قال: عصي عاص من عرض العشيرة، فحلّق
على اسمي، وهدم منزلي، وحرمت عطائي.
فقال الحجاج، أما سمعت قول الشاعر:
جانيك من يجني عليك وقد
تعدي الصحاح مبارك الجُرب
فلرب مأخوذ بذنب عشيرة
ونجا المقارف صاحب الذنب
قال: أصلح الله الأمير، سمعت الله عز وجل

يقول غير ذلك.

قال: وما سمعته يقول؟

قال: قال الله العظيم: (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون).

فقال الحجاج: عليّ بيزيد ابن مسلم.

فمثل بين يديه، فقال له:

أحكّ لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، وابن له منزله.

وأمر منادياً ينادي: صدق الله، وكذب الشاعر».

(عين الأدب والسياسة: ١٨٤)

ما قاله الحجاج من عدوى مبارك الإبل الجرب للصاح من الإبل صحيح، يؤكد الواقع، وما

أكده الواقع ففيه منطق، ولكن قول الشاعر قول
جاهلية، أما قول شقيق بن سليك فهو إسلامي،
اهتز له الحجاج، وأعلن بشجاعة انسحابه من
الجدل، وإعلان ذلك الانسحاب، وترك حزب
الشاعر إلى حزب الله، وصدق الله العظيم:
(ولا تزر وازرة وزر أخرى).

بريق الأدب^(١)

الأدب، وهو حصيلة العلم والمعرفة في الفنون العقلية المختلفة، وفي أبواب الذوق المتنوعة، فيه عصارة عقل المفكرين، وحصيلة تجارب المبرزين في عقلهم، والراقي في أذهانهم، يرفع شأن صاحبه ويعلي قدر المبرز فيه، حفظاً ونقلًا، وإلقاءً وتبصرًا.

اهتم به ذوو الشأن في الجاهلية، وفي عصور الإسلام المختلفة، وأثابوا عليه، وشجعوا على حمله، واهتمامهم به جاء لأنه إضاءة فكرية تحتاج إلى جهد وتعب، وسنوات طوال حتى تكسب الطاقة التي تعطيها قوتها، وتبقيها مشعة دائمة.

نشرت في «المجلة العربية» في ذي القعدة ١٤٢٤ هـ، الموافق يناير ٢٠٠٤، العدد ٣٢٣، السنة ٢٨.

لم يخف الحكام والبارزون في المجتمع، من رؤساء قبائل، وأغنياء، ورؤوس مهن، حبهم لهذا الفن الراقي، فإنهم إذا لم يعطهم وقتهم فرصة للتعلم والتأدب بما يجعلهم بارزين مرموقين فيه، حرصوا على أن يكون أولادهم كذلك، وإن لم يكن فأحد من جلسائهم. وتغص كتب الأدب بقصص هؤلاء، وهي قصص طريفة وممتعة، تجلّ بها الكتب، وتحلّى بها الصفحات، ومن هذه القصص القصة الآتية، وهي من خير ما يستشهد به في هذا المقام:

«قدم عبدالملك بن مروان الكوفة، فجلس يعرض أحياء العرب للبيع، فقام إليه معبد بن خالد الجدلي، وكان قصيراً دميماً، وقام إليه رجل طرير، حسن الهيئة، قال معبد: فكان

الرجل أمامي، فنظر عبدالمملك إلى الرجل، فقال:
ممن أنتم؟ فسكت الرجل، فقلت أنا من خلفه:
من جديلة. فأقبل على الرجل وتركني، فقال:
من أيكم كان ذو الإصبع؟
فقال الرجل: لا أدري.

فقلت: ياأمير المؤمنين، كان عدوانياً.

قال: من أيهم؟

قال: لا أدري.

فقلت من بني رهم بن ناج.

قال: فأنشدني قوله.

أبعد بني ناج وماكان منهم

فلا تتبعن عينيك ماكان هالكا

فأضحوا كظهر العود جبّ سنامه

يطيف به الولدان أحذب باركا

فأقبل على الرجل، فقال: ولم سميّ ذي الإصبع؟

فقال الرجل: لا أدري.
 فقلت: نهشته في أصبعه حيّة.
 فأقبل على الرجل: فقال: وما كان يسمى قبل ذلك؟
 فقلت: كان يسمى حرثان.
 فأقبل على الرجل وتركني، فقال أنشدني:
 عذير الحي من عدوا
 ن كانوا حية الأرض
 فقال الرجل: لست أرويهها.
 فقلت: إن شئت يا أمير المؤمنين أنشدتك.
 فقال: أدن مني، فيأني أراك أديباً لسناً، فدنوت
 منه، فقال: أنشدني، فأنشدته:
 عذير الحي من عدوا
 ن كانوا حية الأرض
 بغى بعضهم بعضاً
 فلم يرعوا على بعض

ومنهم حاكم عدل
فلا ينقض ما يمضي
ومما المرء من شيء
من الإبرام والنقض
فقال عبد الملك لصاحبي: كما عطاؤك؟

قال: سبع مئة.

ثم قال لي: كم عطاؤك؟

قلت: أربع مئة.

قال: أنت أحق بالسبع منه، خذوا من عطاء
هذا ثلاث مئة فزيدها في عطاء هذا.

فانصرفت وعطائي سبع مئة، وعطاء صاحبي
أربع مئة.

قال: فرغب الناس من يومئذ في الأدب.

(المصون في الأدب: ١٦٩)

لقد أحسن عبد الملك أن زاد هذا وأنقص ذاك،

ولو لم يفعل لأتّبناه، وقمنا نحن بالزيادة،
والإنقاص، وحسناً فعل عبد الملك بما فعل،
وأجاد فيما صنع، إذ أطال الحبل للطويل النضر،
فقد أبعد عن نفسه لوم من قد يقول إنه لم يعط
هذا المقصر الفرصة لعرض ما قد يكون لديه من
المعرفة. وكان تصرف عبد الملك بالزيادة من أجل
المعرفة، والإنقاص من أجل الجهل، مدعاة لدفع
الناس للإقبال على مصدر الضوء يعبّون من
زالاله، ويرشفون من رحيقه.

إشعاع الإيمان^(١)

قوة الإيمان بالله طمأنينة للنفس، وراحة للقلب، وجالبة للسعادة، تنير الحياة لصاحبها، وتشع في داخله روحاً تملأ جوانحه غبطة ورضى، تساعد على السير في الحياة بخطى سيمائها الثبات، والسير على جواد خيرة، وكلما عمقت جذور الإيمان في صدر الإنسان سطعت فيه أشعة زاهية، تطفح بها سويداء القلب، وتجعله يقبل بثقة ما لا يرى الناس الآخرون به مجالاً للقبول، لأنه ليس للإيمان في قلوبهم دوحه تشرب من معين صاف، وماء قراح.

نشرت في «المجلة العربية» في ذي الحجة ١٤٢٤هـ، الموافق فبراير ٢٠٠٤، العدد ٣٢٤، السنة ٢٨.

صاحب الإيمان المهزوز يخنع للاستسلام لليأس،
ويقنط من روح الله، نعوذ بالله.

هناك قصة لعلها رمزية، ولكنها معبرة تعبيراً
صادقاً، وأحاطت بجوانب الأمر الذي نحن
بصدده، إحاطة السوار بالمعصم:

هناك سلطان في زمن غابر، وبلاد بعيدة، وكان
له جليس يجد لديه من الرأي والحكمة ما يجعله
أحياناً يأخذ رأيه فيما استعصى، أو بهتت
الحكمة في وقوعه، فكان هذا الجليس، إذا ما
سئل عن رأيه في حادث مقلق يقول: بثبات
المؤمن وطمأنينته: «لعله خير».

حدث في يوم من الأيام أن خرج هذا
السلطان، ومعه جلساؤه، للصيد وعندما أطلق
بندقيته على طريده، ارتد الطلق على يده،
فأتلف إصبعه، فالتفت إلى من حوله، وبينهم

الجلس الصالح، التفاتة المستطلع لرأيه، فقال له
الجملة المعتادة: «لعله خير».

ولم يجد السلطان في هذا الحادث خيراً،
وغضب على هذا الحكيم، فأرسله إلى السجن،
وبقي فيه أربع سنوات أو تزيد.

ثم خرج السلطان للصيد، وهم في الطرد
انفصل عمن معه، فدخل حدود قطر قوم على
غير ملته، ولهم طقوس وثنية من بينها أن من
أمسكوا به في هذا اليوم ضحوا به لآلهتهم، ولم
ينفع السلطان تأكيده لهم أنه السلطان، وأن
إطلاقه سوف يدرّ عليهم رزقاً كثيراً، ولكن
ولاءهم لآلهتهم كان أقوى من المال.

وكان لابد لمن يضحّى به أن يكون جسمه
سليماً من الآفات والعيوب، لتليق التضحية له
بمقامه في عقيدتهم. فلما تبين لهم أن أصبعه

مجدوذ، أطلقوه مشيعاً باللعنات، لما أضاعه عليهم في يوم ذلك العيد.

فعاد إلى بلاده، وتذكر السجين، فأمر بإطلاقه، وإحضاره، لما ثبت له من صدقه، واعتذر له عن سجنه، فما كان من السجين إلا أن ردّ: «لعله خير».

فدهش السلطان، وقال له: فهمت أن قطع إصبعي كان لخير، ولكن كيف يكون سجنك خيراً.

قال: يا جلالة السلطان، لو لم تسجنني، فربما كنت أنا الذي مسكه القوم، وضحووا بي. هذه قصة رمزية، رواها أحد الزملاء الوزراء وسمعتها من وزير على جانب من حضوره بعض المؤتمرات في شمال أفريقيا، وقت الاستراحة بين جلستين.

سحر الحكم (١)

تسحر الحكم العلماء الأدباء، يجرون خلفها،
ويتتبعون أثرها، ويبحثون عنها، بحث طلب
والحاح، لمعرفة ب قيمها اللفظية، والمعنوية،
ومراميها، ومدى تأثيرها، يسارعون لاقتناصها
متى لاحت لهم من أي زاوية وركن، سواء كان
ذلك أثناء بحثهم العلمي، أو قراءتهم المعتادة،
أو كان ذلك في حديث عابر، أو حديث متأن
مقصود.

إنهم يصغون بكل حواسهم إذا ما أحسوا أن
هناك حكمة على وشك أن تلقى، ولأن ما تجمع
من الحكم كثير، بعضه يعود إلى أزمان ساحقة،

نشرت في «المجلة العربية» في محرم ١٤٢٥هـ، الموافق مارس
٢٠٠٤، العدد ٣٢٤، السنة ٢٩.

ولا يهم بُعد الزمن، ولا القائل للحكمة، المهم هو الحكمة نفسها، ولأجل هذا جاء القول المقبول: «الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها».

لأجل هذا تصدى بعض عشاق الحكم، والمؤمنين بقيمتها، فوضعوا لها فصولاً في كتبهم، أو أفردوا لها كتباً قائمة بذاتها، حظيت بإقبال منقطع النظير في زمن عصور ازدهار تقدير الفكر، ومعرفة حق الثقافة.

وهذا أحد الكتاب يجمع في كتابه ما يعد ثروة فكرية ثمينة، والمؤلف هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل، وكتابه هو: «عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة». وجد أبو الحسن جادة سهلة إلى مبتغاه، وطريقاً معبداً، فسلكه، وترك لنا هذه الدرر، ونظمها بطريقة

زادت من قيمتها، لأن خطته سهلت أمر مراجعة الحكم، ومعرفة مظانها. وقد أبدع في هذا وأحسن، ووصل إلى هدفه عن طريق لا وعورة فيها، ولا معوقات، ولا بد أنه بذل جهداً في القراءة والبحث، ثم التبويب والتصنيف، ومنهجه إنمّا، أو إن، أو ما، أو لا، أو إياك، أو إذا، أو من، أو ليس، أو ربّ. ووضع تحت كل واحدة ما جاء من حكم ابتدأت بها.

ثم انتقل إلى ما قيل في واحد واثنين إلى أن وصل إلى عشرة. والعجب هو من العقول التي تطرقت إلى مثل هذه الأمور، وكيف أجادت ما جاءت به، وصدقت فيما قالت، وأحسنّت فيما عبرت عنه.

ثم انتقل إلى ما قيل في بعض المواضيع مثل السؤود والمروءة، ومكارم الأخلاق، ومداواة

الناس، والتأدب معهم في حالي الفقر والغنى،
وجاء في هذا المجال بدرر من الحكم، وتلا ذلك
تنوع في مواضيع الأقوال، وتطرق إلى بعض
الحكايات والآداب الصادرة عن ذوي الألباب
والأحساب. ثم التفت إلى الوصايا والمواعظ.
هذا كتاب لا يستغنى عنه، ولعل إعطاء بعض
الأمثلة عما جاء فيه يساعد على تصور ما يحويه
من الجواهر.

جاء تحت حرف «إنما»:

«إنما تأكل ما تشتهي، والذي لا تشتهيه
يأكلك».

«إنما يخبر ودّ الرجل عند الحاجة».

«إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدعيه
لك، وإنما سمي عدواً لعدوّه عليك إذا ظفر
بك».

«إنما للناس منا
حسن خلق ومزاج
ولنا ما كان فينا
من فساد وصلاح»
(عين الأدب والسياسة: ٢٠-٢٧)
وخير من يستفيد من هذا الكتاب طلاب
المراحل الدراسية التي يطلب منهم فيها كتابة
مواضيع في الإنشاء.

كلام الملوك ملوك الكلام^(١)

اهتمت الأمم المتمدنة بصلاح مجتمعاتها، والأفراد في المجتمع هم نسيج تكوينه، لهذا التفتت هذه الأمم إلى الأفراد تزين عقولهم بأقوال تنير لهم طريق أفعالهم، هذه الأقوال تأتي بصيغة حكم، تأتي معبرة بدقة وصدق، يراعى فيها صحة المدلول وصوابه، وجاذبيته وقبوله، وهذا يجعل الحكمة التي تلقى تستحق مسماها، سواء جاءت نثراً، أو شعراً، أو مثلاً، أو جاءت من مجنون، فقد قيل: خذوا الحكمة ولو من أفواه المجانين، وإن كان مجيئها منهم نادراً، إلا أن التبر في الترب

نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٢٥) صفر ١٤٢٥هـ / أبريل ٢٠٠٤م.

أحياناً. وجها يقال عنه إنه مجنون، ولكنه ينثر
درر الحكمة أينما ذهب، مما شكك في جنونه.
وكان عريقو المدنية يهتمون بمستوى أمتهم،
لأنهم يدركون أن السعادة في سير أفراد المجتمع
بطرق مستقيمة، ولهذا كانوا يقضين لاقتناص
النافع، والوقوف في وجه الضار، وكانت هذه
الحكم ذوب أفكار ناضجة، وعقول سليمة
رصينة، وليسهل تذكرها، وليكون تأثيرها قوياً،
يؤتى بهذه الحكم في ثوب قشيب، وفي هذا
اجتذاب للسامع، وإغراء له بترديدها في
المجتمع، وتطبيق مؤداها عملاً.

وعلى هذا فالحكمة تمر بذهن الحكيم، فلا يهتم
فقط بمعناها ومدلولها، ولكن يهتم أيضاً بالإناء
الذي سوف يجلبها به، فيراعي أن يكون هذا
الإناء جاذباً، ومن الجاذبية أن يكون شريفاً،

والشرف يأتي عندما ينسب القول إلى ملك أو إلى عالم، أو شريف قوم. وسوف نرى في الأقوال الحكيمة الآتية كيف ألبست الحكمة ثوباً قشياً جذاباً. ومن المؤكد أن الملوك المذكورين ما قالوا هذا الذي وضع على ألسنتهم، ولكن الحكيم الذي فكر في هذه المعاني عندما صاغها رأى أن يعلقها على هؤلاء، وقد يكون أحدهم فقط قال ما نسب إليه، وقد اختار الحكيم هذه الصورة لأنه رأى فيها النجاح لقوله في أن يسري في المجتمع، ويقبل. كيف لا وقد علق على مشجب من ذهب:

«قيل تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحد:

قال كسرى: أنا على رد ما لم أقل أقدر
مني على رد ما قلت.

وقال ملك الهند: إذا تكلمت بكلمة ملكتي،
وإن كنت أملكها.

وقال قيصر: لا أندم على ما لم أقل، وقد
ندمت على ما قلت.

وقال ملك الصين: عاقبة ما قد جرى به القول
أشد من الندم على ترك القول.

[المحاسن والأضداد: ٢٣]

هذه الأقوال الحكيمة كلها ترمي إلى إحسان
ملكة الصمت، وأن على الإنسان ألا
يتكلم إلا بعد أن يزن ما سوف يقوله،
وأن يكون مطابقاً للحال، فيه نفع ولا ضرر
منه، والأقوال في حمد الصمت في الأدب
العربي تكاد لا تحصى، ومنها «الصمت حكمة
وقليل فاعله»، و«قل لرأس ما قطعك قال
لساني». و«قل خيراً وإلا فاصمت». و«كم من

كلمة قالت لصاحبها دعني».

والأدب العربي مليء بأمثال ذلك، ومن الظلم
لهذا الموضوع أن تعطى أمثلة منه، فهو حقل
واسع يكشف عن اهتمام العرب بهذا الجانب،
وتقديرهم له، وإدراكهم لفائدة الصمت والقول
بعد تفكير ووزن.

أطبع أم اقتنأت؟^(١)

يحتار المرء عندما يقرأ بعض النصوص، هل الرواية عمن قالها صحيحة، أو أنها فكرة خطرت برأس أديب أريب، فسبكها سبك عسجد، وعلقها على مشجب أحد الأشخاص من البارزين، ممن يتوقع أن يأتي منهم مثل ما رُوي. وتزول الحيرة أحياناً عندما يحص النص، ويدقق في أجزائه، ويتحقق من مراميه، وأحياناً تبقى الحيرة، لأن النص يحتمل هذا، ويحتمل ذلك، فالمقومات لهذا والمقومات لذلك في قوة واحدة، وما عليك إلا أن تسلم، وتأخذ النص على أنه مصدر لذة لك وأنت تقرأ، فالأمر يبقى

نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٢٦) السنة ٢٩ ربيع الأول ١٤٢٥هـ/ مايو ٢٠٠٤م.

في النهاية من قبيل الإبداع الذي هو نتاج فكر، سواء كان ما تقرأ نصًّا لحادثة واقعة فعلاً، أو كان عصارة خيال جامع، عرف روح العصر، وروح الفكر فيه، فابتدع بمقدرة منه ما يدخل البهجة على نفس القارئ.

هذا جال في بالي وأنا أقرأ النص الآتي:
«أتى رجل الهيثم بن العريان بغريم له قد مطله حقه، فقال: أصلح الله الأمير، إن لي على هذا حقًا قد غلبني عليه. فقال له الآخر: أصلحك الله، إن هذا باعني عنجدًا، واستنسأته حولاً، واشترطت عليه مياومة، فهو لا يلقاني في لقم إلا اقتضاني ذهبًا.

فقال له الهيثم: أمن بني أمية أنت؟
قال: لا.

قال: فمن بني هاشم أنت؟

قال: لا.

قال: أفمن أكفائهم من العرب؟

قال: لا.

قال: ويلى عليك! انزعوا ثيابه.

فلما أرادوا أن ينزعوا ثيابه قال:

أصلحك الله - إن إزاري مرعبل.

قال: دعوه، فلو ترك الغريب في موضع لتركه

في هذا الموقع".

[المحاسن والأضداد، ١٧]

إن كانت هذه الحادثة قد حدثت فعلاً، وأن هناك رجلاً يتصف حقاً بهذه الصفة، فإن الطبع يغلب التطبع، وهذا رجل صار التقعر والجري وراء الغريب هوايته، ومادام خالط دمه بهذه الصورة، فلا يتوقع أن يتركه في أي من مواقف الشدة، وأحسن الهيثم إذ أعفاه من اللائمة.

ولكن ماذا عن أصل الشكوى، هل اقتنع
الهيثم بقول الشاكي، أو هل دل المشكو على
طريقة يسد بها دينه، هذا كله نسيه الراوي عند
الهدف الأساس من سرد القصة وهو تسجيل
هذا الكلام المغرب، المبعد في معجم اللغة
العربية، وهذا من مداخل الشك في أن القصة
مركبة.

على أي حال يبقى القول بأن الطبع يغلب
التطبع حكمة بالغة، فالتصنع سرعان ما يفضح
صاحبه عند مواقف الشدة، أو عند المفاجأة،
والتصنع نوع من الكذب القبيح، لأنه خلاف
الطبيعة، ولهذا تفضحه الطبيعة، وهي أول
أعدائه، وأقوى من يفضحه.

هل من دمة؟^(١)

يربو المال بالتجارة، وبالسعي في أرض الله، وتنمو الشجرة بأن توضع في أرض خصبة، وتُعطى غذاءها من السماد، وشرابها من الماء، وترتفع المباني بالفعلة، وينمو الجسم بالأكل والشرب، ويربو القطيع بالتلاحح، وتقوى العضلات بالرياضة، ويثقف العقل بالتعليم، ويصح البدن السقيم بالأدوية، ويحسن خلق الصغير بحسن التربية، ويزول الجوع بالأكل، ويذهب العطش بشرب الماء. ويحسن النظر بالنظارة، والسمع بالسמاعة، والأسنان إذا ذهبت حل بدلاً منها صناعة.

نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٢٧) السنة ٢٩ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ/ يونيو ٢٠٠٤م.

كل شيء مادي يناله الضعف أو
القصور جعل الله سبباً لإكمال النقص فيه
وتقوية الضعف، والخلل في المادة واضح المعالم
مما يسهل تلمس الأسباب لإزالته، وقد ينجح
ذلك، وقد يعوق صلاحه سبب خفي،
فيبقى الخلل، ولا يخفى هذا على أحد.

وقد اجتهد العلماء في الفنون لجعلها كاملة
في حدود طاقة البشر، حسب ما وصل
إليه علمهم، وأوصلتهم إليه تجاربهم، فالباني
يبنى حسب آخر ما وصل إليه علم الهندسة
والبناء، ويصون المبنى بقدر ما يبيض به وجهه
من نصح واجتهاد، والطبيب في فنه يعرض في
عمله زبدة ما توصل إليه فنه، وأهل فنه،
ويحاول أن يبرز غيره، ويغلب من سواه، ويتقدم
صفه، ليأتي علاجه بالغاية المنشودة، ويشم

مريضه رائحة العافية من أصابعه السحرية،
وأدويته الناجعة. والمعلم مثل البناء والطبيب
يحاول أن يحقن العلم في ذهن تلميذه، ويوسع
مداركه، ويجعله مفخرة له ولطبقة من العلماء،
ليتصل العلم، وتزدهر الثقافة ويرقى الفكر،
والتاجر عينه مفتحة على الأسواق وما يجري
فيها، ومسارب الربح، ومعرفة السهل منها
والصعب، وهو طموح إلى أن يكون رصيده من
عمله في أعلى درجات الوفرة والغنى.

هذا عن المادة، وما يتصل بها، وما يكملها من
عمل، وما يُنقصها من تماهن أو تكاسل، أو قلة
اعتبار، فماذا عن الروح وغذائها، وماذا عن
النفس وصقلها، لقد قال الأدباء شيئاً كثيراً عن
هذا الجانب، وجاؤوا عنه بما جاء به الدين، وما
رأوه يعضد ذلك من تفسير أو تخريج أو توضيح

أو تمثيل، أو حسن عرض، وتسهيل.
سوف أروي قصة تلمس الروح بأنامل رقيقة،
وتدغدغ النفس مداعبة ودية، ولكنها سوف
بتأثيرها تسيل الدموع، وتُكسّر العبرات،
وتوقف النَّفْس، وتَشْدُهُ الإحساس، ومن لم
تدمع عينه بعد قراءتها، فروحه عليلة، جامدة
كالصخر، فليبحث لها عما يلينها:

حكي أن حاتمًا الأصم قال لأولاده:

إني أريد الحج، فبكوا.

وقالوا إلى من تكلنا؟

وكان له بنت لها سبع سنين، فقالت:

ما يبكيكم؟ دعوه يذهب، فليس برازق.

فخرج فباتوا جوعًا، فجعلوا يومجون تلك

الصبية، فقالت:

اللهم لا تخجلني بينهم.

فجاز أمير البلد عليهم، فقال لبعض أصحابه:
اطلب لي ماءً.

فناولوه كوزاً جديداً، وماءً بارداً، فشرب، وقال:
دار من هذه؟

فقالوا: دار حاتم الأصم.

فرمى فيها منطقة من ذهب، وقال:
من أحبني وافقني.

فرمى العسكر كله. فجعلت الصغيرة تبكي،
فقلت أمها: يا بنية ما يبكيك؟ وقد وسَّع
علينا، فقالت:

يا أماه أبكي لأن مخلوقاً نظر إلينا نظرة
فاستغنيا، فكيف لو نظر إلينا الخالق". [عين
الأدب والسياسة: ١٤٤].

لا أستطيع أن أعلق على هذا فلم أعد أرى،
لأن عيني، يعلم الله، قد امتلأت بالدمع.

قيمة الأناة^(١)

الغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفئه،
قال هذا حكيم عرك الحياة، وعرف كنهها،
وسبر غورها، وقال حكيم آخر الغضب شعبة
من شعب الجنون، وغضب الحاكم خطير،
وغضب القاضي أشد وأدهى، لأن مصائر
الناس في أيديهم، ففي أيديهم وسائل الثواب
والعقاب. وهنا لا يعنينا غضب الأفراد على
الأفراد، فالمجتمع لا يهتز بذلك، وقد لا يشعر
به، فلا غضب الزوج على زوجته يهمننا، ولا
غضب الزوجة من زوجها، ولا غضب البائع
على المشتري، ولا غضب المشتري من البائع،

نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٢٨) السنة ٢٩ في جمادى
الأولى ١٤٢٥هـ/ يوليو ٢٠٠٤م.

ولا غضب المشتري على البائع، ولا غضب الصغير من الصغير، فهذا أمر يعمر الليالي والأيام، وليس له جذور، سرعان ما تخدم جذوته، ويتراضى الطرفان، ويعودا صاحبين حميمين.

أما الحاكم والقاضي فقد ينتج عن غضبهما قطع رأس، أو أذى جسم، أو مصادرة مال، ولهذا دعا الصالحون للحاكم، والقاضي حاكم، أن يرزق بطانة صالحة، فالصلاح في البطانة مصدر أمان يهدئ الحاكم عند الغضب، ويبصره بما قد يكون غاب عن باله بسبب الغضب، فيأتي رأيُه شؤبوباً بارداً يطفى ناراً متقدة، ويفتح له نافذة يتنسم منها ريحا جديدة غابت عنه في لحظة غضب، ويريه أن ما ينوي إنزاله من عقاب أكبر كثيراً من موجب الغضب. والحاكم يسيطر عليه،

وهو في مجلس عام، أن يحمي هيبة الدولة،
حتى لو كان في هذا زحف عن حدود العدل.
كان الحجاج يغضب، ويحنق، خاصة على
الخوارج، عندما يقعون في يده ويأمر بقتلهم،
حتى لا يتخذوا قدوة فيما لو أراد أن يتسامح
معه. ولكنه يفرح بالرأي يأتي من جليس، أو
من المذنب نفسه، يجد معه الحجاج عذراً في
العفو عن المذنب، على أن لا يكون هذا على
حساب هيبة الدولة.

أمر الحجاج بقتل أسرى، فقتل منهم جماعة،
فقال رجل منهم وقد عرض على القتل:
لا جزاك الله عن السنة خيراً يا حجاج، إن كنا
أسأنا في الذنب فوالله ما أحسنت في العفو، فإن
الله تعالى يقول: حتى إذا أثختموهم فشدوا
الوثاق، فإما منا بعد وإما فداءً (محمد: ٤).

فهذا قول الله في الكفار، فكيف في المسلمين،
وقد صدق قائل هذا البيت:

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم
إذا أثقل الأعناق حمل القلائد
فقال الحجاج: أف لهذه الجيف، والله لو أنهم
قالوا مثل ما قال هذا الرجل ما قتلت أحداً
منهم، ولكن أطلقوا بقيتهم.

(المختار من نوادر الأخبار: ٧١)

هذا في زمن الأمويين، ومثل هذا الموقف،
وعلى إثر كلمة قالها رجل رزين موفق، مجرب
للحياة، أنقذت بإذن الله، بلدة بأكملها. فالشيخ
عبدالعزیز الحصين، عندما أخذ إبراهيم باشا
يتلمس المعاذير لمعاينة أهل شقراء استطاع
إخماد نار غضبه، وقطع الجدل بقوله: «كل ما
تقول صدق، ولكن العفو يا باشا، فقال الباشا:

عفونا عفونا، إكراماً لمجيئك».

(عنوان المجد: ١ / ٢٩٣)

بعض الأقوال الرزينة تحدث في ذهن الغاضب
هزة كهربائية، فتزحزحه من جادة الخطأ إلى
جادة الصواب، وهذا ما حدث للأمير ابن
هبيرة، إنها قصة مثيرة:

قال الشعبي: دخلت على ابن هبيرة، وقد أتى
بقوم، فأمر بضرب أعناقهم، فقال له رجل
منهم:

أيها الأمير، إن الذي جعل السجن كان حكيماً،
جعله قيلاً للعجلة، وباباً للتثبت، وسبباً إلى
الأنانة، فعليك بالتؤدة، وإياك والعجلة، فأنت
على عقوبتنا أقدر منك على ردها.

فأمر بحبسهم، ثم عفا عنهم، وأحسن إليهم».

(عين السياسة: ١٦٩)

هذا مثل ناطق بالصدق فيما يكون عليه الحاكم
وقت الغضب، وفيما يكون عليه عندما تخمد
جمرة ناره. حنقه وقت الغضب يؤدي به إلى
إنزال أشد العقوبات بمن تسبب في هذا
الغضب، وهدوؤه وتبصره عند راحة الذهن
يؤدي به إلى التسامح والإحسان، فهذا ابن هبيرة
مشى بنور الله فعفا وأحسن عندما خرج من
حيز شعبة الجنون، إلى روضة غناء من راحة
الذهن، وهدوء الأعصاب.

وهنا ما قاله الأحنف بن قيس، أحد حكماء
العرب:

«ينبغي للوالي ألا يغضب، لأن الغضب في
القدرة لقاح السيف والندامة».

(المصون في الأدب: ١٨٢)

ونختم هذا بلؤلؤة مضيئة عن حاكم قاض

عدل، مقرر له بالفضل العميم، والحزم الوافي،
وبقوة البصيرة، والإقدام، والشجاعة المتناهية في
قبول الرأي، رجل يمشي بنور الله. هذا هو عمر
بن الخطاب وقصته الآتية هي خير مثل فيما
نحن بصددده:

«أحضر بين يدي عمر بن الخطاب -رضي الله
عنه- رجل سكران، فأمر أن يُحد، فشتمه ذلك
الرجل السكران، فرجع عمر بن الخطاب -
رضي الله عنه- عن ضربه، فقليل: لم تركته
ياأمير المؤمنين حين شتمك؟

قال: إنه لما شتمني غضبت، فلو ضربته لكان
ذلك لغضبي لا لربي».

ضالة المؤمن^(١)

لا تُسمَّى الضالة ضالة، ولا يهتم بالعثور عليها
إذا ضلت، وغابت عن العين، إلا إذا كانت
ثمينة، وتركت في نفس صاحبها حسرة هي
جمرة في الصدر، ولوعة في المهجة، وشاغل في
الذهن، أما إذا كانت من سقط المتاع، فهي لا
تستحق أن يبحث عنها، أو أن يجرى خلفها،
وقد تختفي، فلا يُدرى باختفائها، وتضيع فلا
يحس بضياعها.

ضالة المؤمن ثمينة لأنها سميت ضالة، وعرف
بفقدائها، واستلزم الأمر البحث عنها، وهذه
قيمة، أما القيمة الأخرى، وقد تغلب بالأهمية،

نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٢٩) السنة ٢٩ في جمادى
الآخرة ١٤٢٥هـ/ أغسطس ٢٠٠٤م.

أن هذه الضالة ليست ضالة أي أحد وإنما ضالة المؤمن، ومن هو أهم من المؤمن بين البشر، فما هي الضالة؟ إنها الحكمة، وعقل المؤمن من أعلى درجات العقل، والحكمة من أرقى درجات نتاج العقل، ولهذا صار المؤمن يجري خلف الحكمة، يبحث عنها أين وجدت ليلتقطها، قد تشع الحكمة في رأس عالم، وقد تشع في رأس جاهل، وقد تضيء في رأس مفكر، وقد تطلع من ذهن ساذج، ولكنها تعلن عن نفسها بصوت عال جهوري، لا يجهل موقعها ولا قدرها إلا جاهل كد.

استوقفتني كلمة جامعة لقس بن ساعدة، الرجل الذي قرأنا عن صفاء ذهنه، ومحاولة معرفة كنه الكون الذي يعيش فيه قبل الإسلام، ومحاولته سلوك الطريق السوي، الذي يدل

عليه العقل، وتهدي إليه الفطرة.
والكلمة ملأى بالحكم الثمينة، وهي وإن كانت
موجهة لولده إلا أنها، والحق يقال، نصيحة
حكيمة لأبناء كل الناس، في كل جيل، وفي
كل بلد وبقعة، ليس فيها إلا درة وجوهرة، جاء
ما فيها نتيجة صفاء ذهن، ونقاء فطرة، كل فقرة
منها يمكن أن يكتب عنها فصل ضاف، وجاءت
نتيجة عرك الزمن، وعصر التجارب، وأخذ
زبدتها، والكلمة هي:

إن المعاً تكفيه البقلة، وترويه المذقة، ومن عيرك
شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه،
ومتى عدلت على نفسك عدل عليك من
فوقك، وإذا نهيت عن شيء فأنته نفسك. ولا
تجمع مالا تأكل، ولا تأكل مالا تحتاج إليه، وإذا
ادّخرت فلا يكونن كنزك إلا فعلك. وكن عفاً

العيلة (أي الفقر) مشترك الغنى، تسدّ قومك.
ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً
وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً.
ولا تضعن في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعهِ إلا
بشق نفسك، وإذا خاضعت فاعدل، وإذا قلت
فاقتصد، ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت
قربته، فإنك إن فعلت ذلك لم تزل وجلاً،
وكان المستودع بالخيار في الوفاء والغدر، وكنت
له عبداً ما بقيت، وإن جنى عليك كنت أولى
بذلك، وإن وفى كان الممدوح دونك.

(المصون في الأدب: ١٧٩)

من تدبر هذا القول وجد فيه الحياة التي قاومت
الزمن منذ زمن قس بن ساعدة، وهي صالحة
لزماننا، وكأنها قيلت لنا، أو كأننا المقصودون
بها، فنحن أحوج إلى تتبعها. ولما فيها من قوة

وصدق، تداول أجزاءها الناس، من أدباء
وشعراء، وهذا مثلاً جرير، يأخذ فقرة تملأ بيتاً
من شعره، يقول جرير:
وإني لعف لفقر مشترك الغنى
سريع إذا لم أرض داري انتقاليا
وقال قس أعلاه: وكن عف العيلة مشترك
الغنى تسد قومك.

قافلة ومأتم^(١)

في مجالس السمر التي يحييها الأدباء، ومحبو اللغة العربية، يحلو الحديث عن اللغة، وما فيها من جمال، ودقة تعبير، وحسن تصوير، ومدلول دقيق، ومعنى دال.

وينتقل الحديث عفواً من جانب إلى جانب ومن زاوية إلى أخرى، يوصل بعض الحديث الفكرة بالفكرة، فتتسلسل الأحاديث مثل «تروس» الساعة، يحرك أحدها الآخر آلياً، وبانتظام، ولو سجلت ما يقال، ورجعت إلى ما دونت فيما بعد تجد عجباً، تجد أن الحديث بدأ في أمر في شرق خارطة اللغة، وانتهى في غربها.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٠) السنة ٢٩ في رجب ١٤٢٥هـ / سبتمبر ٢٠٠٤م.

قد يبدأ الحديث بتحرير كلمة جاءت على
لسان أحد الحاضرين، وهي مما استحدث مما لا
يقبله المتضلعون في اللغة، فيبدأ النقاش،
ويحتدم، ويتشعب الجدل، هذا يقول إننا إذا
تهاونا في ترك كلمات خاطئة تتسلل إلى لغتنا،
فإن لغتنا تصبح كلماتها غريبة في جملها من
كثرة هذه الكلمات التي أدخلت، وفيها الخطأ
في دقة المعنى، أو الخلل في المبنى الذي جاء
على غير قياس، أو في الاقتباس، دون داع، من
لغة أخرى، مع أن ما يقابلها في اللغة العربية،
أدق وأصفى وأوفى.

وهذا يقول إن مثل هذا التسلل «يثري» اللغة، ويزيد
من مفرداتها، وهي شائعة على ألسنة الناس، فلماذا
لا يسمح لها بأن تنساب في الكتابات؟
هذا جدل قديم، وفي كل زمن يتجدد، وفي

بعض العصور بلغ من قلق الأدباء والكتاب أن ألفوا فيه كتباً ضافية، ودبجوا فيه رسائل مدهشة. وفي عصرنا احتدم النقاش فيه، وبلغ ذروته في حقبة من سيرنا الحاضر، وما كُتب: «قل ولا تقل» إلا وجه من تلك الوجوه.

وقد قلت هنا قبل سطر أو سطرين: «في حقبة» تفادياً لكلمة «فترة»، لأن فترة لم ترد في عصور اللغة الأولى إلا بمعنى «فترة من الرسل» الواردة في القرآن الكريم، ولم يقبل أصحاب هذا الرأي حجة من يرى أن الاستعارة تميز استعمال «فترة»، ولا داعي للتكلف باستعمال: «حقبة» التي يرى أصحاب هذا الرأي أنها لا تمثل المقصود بالدقة التي تمثلها: «فترة».

ويثور جدل على كلمتي «كمايلي» و«كما يأتي» اللتين تأتيان سابقتين لشرح يتبعهما.

والأنشطة والنشاطات محل جدل كذلك، لأن هناك من يقول إن النشاط لا يجمع، وعند تعدد شعبه يمكن أن يقال: «النشاط المتعدد» أو «النشاط المختلف»، ويتعجل أحد السامعين فيقول إن كلمة المختلف لا ترد بمعنى المتعدد، فيذكره آخر بالآية الكريمة: (مختلف ألوانه). وهكذا تبقى الكلمة كُرة بأيدي لاعبين.

وهذا موضوع يستحق أن يكتب فيه كتاب، خاصة وأن الكتابات الصحفية، وهي تنقل أخباراً مترجمة، لا تهتم بسؤال المجامع اللغوية عن صحة ما تترجم، ولا تعود إلى ما قد يكون هناك من حصيلة مهياة سبق للمعاجم أن بحثتها، وأعطت رأيها فيها. ولعلمهم يجدون خفة ورشاقة في الكلمة التي اختاروها، ترجح في نظرهم على الكلمة التي يقال إنها أقرب إلى

اللغة العربية، وبلهجة معها ابتسامة يقولون:
أيهما أكثر قبولاً كلمة «فاكس» الإنجليزية، أو
كلمة «طبَّقْل» العربية!

أذكر في حديث مع الشيخ حمد الجاسر -
رحمه الله- قال لي إن في نفسي شيء من كلمة
«بسيطة» و«بسيط». ولم يُقرّر فيها رأياً نهائياً.
وأذكر أن الصديق الدكتور يوسف عزالدين
وصف صديقاً عزيزاً بأنه «ساذج» تفادياً لكلمة
«بسيط» وهو جم من أصدقاء ذلك الصديق،
لأنهم لا يعرفون عن «معاني» «ساذج» إلا ماهو
شائع على ألسنة الناس عندما يصفون «غيباً».
هذا، وأكثر منه، مرّ بذهني وأنا أقرأ في كتاب
«أدب الكاتب»^(١) لابن قتيبة، وقد تحدث عن كلمة:

(١) أدب الكاتب، لابن قتيبة، دار الجيل، تحقيق محيي الدين
عبد الحميد، الطبعة الرابعة: ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م، ص (٢٠).

«قافلة» و«مأتم»، وما درج الناس عليه من خطأ في استعمال هاتين الكلمتين، وصرفهما إلى ما بعدهما عن الدقة المقصودة لهما أصلاً.

«ومن ذلك «القافلة». يذهب الناس إلى أنها الرفقة في السفر، ذاهبة كانت أو راجعة، وليس كذلك، إنما القافلة الراجعة من السفر، يقال: قفلت فهي قافلة، وقفل الجند من مبعثهم، أي رجعوا، ولا يقال لمن خرج إلى مكة من العراق قافلة حتى يصدروا».

ومن ذلك «المأتم» يذهب الناس إلى أنه المصيبة، ويقولون: كنا في مأتم، وليس كذلك، إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر، والجمع مأتم، والصواب أن يقولوا: كنا في مناحة، وإنما قيل لها مناحة من النواحي لتقابلهن عند البكاء».

ولم يمر رأي ابن قتيبة عن «القافلة» دون
معارضة فقد قال الأزهري: «هذا غلط، مازالت
العرب تسمي الناهضين في ابتداء الأسفار
قافلة، تفاؤلاً بأن ييسر الله لها القفول، وهو
شائع في كلام فصحاءهم: ومثل هذا الاعتراض
نقل عن ابن الأعرابي.
إذاً لابد من الجدل!!

حرفة الأدب^(١)

الأدب بضاعة مزجاة في بعض العصور، ومن هذه العصور زمننا، فالأديب إذا لم يرع نفسه لم يرعه أحد من البشر إلا في القليل النادر، ولهذا فشكوى الأدباء لا تنقطع، حتى أصبحت لازمة من لوازم عملهم. والمهنة إذا لم يكن الناس في حاجة إليها طوال النهار، في كل العصور، فهي عرضة للتذبذب في القبول، وفي المكافأة.

هي في أزمان مضت مثل الصحف اليوم وأمس، إن احتيج إليها ازدهرت، وإن استغني عنها ببعضها ذبلت وانزوت، واختفت، وقد رأينا صحفاً كثيرة لقيت هذا المصير، في الشرق والغرب، ازدهاراً

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣١) السنة ٢٩ في شعبان ١٤٢٥هـ / أكتوبر ٢٠٠٤م.

وذبولاً، وسمعنا غيرها مما كان له صولة وجولة
قبل أن نولد، واليوم نرى بعضها صحفاً ومجلات
تسحب ساقها سحباً، ولولا بقية من قراء،
ومستفيدين، معلنين وكتاب لما بقيت.

وقد أدرك مسؤولون في أزمان مضت محنة
الأدباء، فحاولوا أن يسهموا في تغيير الصورة
الهزيلة التي هم عليها، ولكنها محاولة منفردة
لم تخل من منتقد لم ير صواب المقدم عليها،
وقيل الكثير عن أن حرفة الأدب لا تعيش
صاحبها، ومات كتاب وشعراء وهم في أنزل
درجات الفقر. ويشهد على صدور الناس عن
الأدباء والأدب ما قاله مسلمة بن عبد الملك في
زمن الخلافة الأموية حينما أوصى بثلاث ماله
لطلاب الأدب وقال: إنها بضاعة مجفوء أهلها.

(المصون في الأدب: ١٨٤)

ومسلمة كما يبدو مهتم بهذه الفئة لأن له قصة
مع الأدباء أوفى من هذه شرحاً وتفعيلاً:
«قال سالم، مولى مسلمة بن عبد الملك: كان
مسلمة إذا أدخل غلة ضياعه جعلها أثلاثاً، فثلثاً
لنفقته، وثلثاً للنوائب والحقوق، وثلثاً يصرفه
إلى أهل الأدب.

قال: فقلت له يوماً: يامولاي إذا ورد مالك
صرفته في ثلاث، فأما النفقة فلا بد منها، وأما
النوائب والحقوق فحزم وقوة، ولا أعرف الوجه
فيما تصرفه إلى هؤلاء القوم؟!

فقال: إنهم تركوا التعيش والطلب، فاشتغلوا
عن المكاسب بطلب العلم، فواجب على كل
ذي مروءة أن يعينهم.

فقلت: يامولاي، جعلته أحب الأقسام الثلاثة إليّ.
(المصون في الأدب: ١٨٤)

سالم اقتنع بهذا لعمه، ترى لو جاء يوم بعد
رحيل عمه هل يتبع هذا الطريق الذي جعله له
عمه، بقوة إقناعه، أحب الأقسام الثلاثة إليه، أو
أن هذا الحب سوف يبهت أمام بريق المال؟!

القضاة والعلم والتجربة^(١)

القاضي بعلمه، ودينه، وخلقه، ونباهته،
وحزمه، وحرصه على العدل، وتجربته، يصل
إلى درجة من الكمال تجعله مرموقاً في مهنته،
مبجلاً في مجتمعه، مقنعاً للخصوم حتى لو كان
من بينهم من هو غير راض، ولكن أصول
العدل التي عمل على أساسها القاضي تلجم
أفواه غير الراضين.

فإذا نقص من الصفات التي عدناها صفة
واحدة دُخل على القاضي، فإذا نقص علمه، ولم
يستعن بعالم وقع في الخطأ أو كاد، وإذا كان
ضعيف الدين خسر الدنيا والآخرة، وإذا كان

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٢) السنة ٢٩ في
رمضان ١٤٢٥هـ/ نوفمبر ٢٠٠٤م.

سيء الخلق كأن يكون أحمقاً، يضيق بالخصوم
عرّض نفسه لمواقع الزلل، وأوقع نفسه في
مواقف تُنقص من راحته وسعادته، وإذا لم يكن
نابهاً فاته كثير مما يحتاج القاضي فيه إلى نباهة،
والحزم لا بد منه في ضبط أمور الخصوم،
وإبقائهم في الحدود التي يقتضيها التحاكم من
آداب تمنع رفع الصوت، والتلفظ بألفاظ غير
لائقة، والتجربة تفيده في كل مرحلة من مراحل
التحاكم، في دراسة أنفس المتحاكمين، وإلقاء
الأسئلة عليهم، وما يجب أن يبدأ به، وما يجب
أن يؤخر، وإتقان طرح السؤال الذي يؤدي إلى
بعض ما يريده القاضي دون أن يعرف الخصوم
مرماه. والتجربة تفيد أكثر من معرفة النصوص
في العلم في بعض الأحيان، فقد يكون أحد
الخصوم عالماً، ولكن القاضي يتفوق عليه

بالتجربة.

والنباهة، وحسن التصرف، وتوخي العدل، وعمق التجربة، تساعد القاضي على سبر كنه القضية، التي أمامه، إذا كان شاعراً بأن الحق مع أحد الخصمين ولكن الدليل غائب، فهذه الصفات تجعله يضع يده على المفتاح الذي به يفتح المغلق، ويلقي الضوء على ظلمة الأمر الذي أمامه وحيّره، وتزيل الغموض الذي اكتنف المسألة، وأغطش باطنها.

وقد وجدت قصة، وجد القاضي أن الحق يجب أن يُعطى لمن ظاهر الأمر لا يعطيه حقاً، والأدلة في يد الخصم الذي الحق ليس له حسب نظر القاضي، فاحتال القاضي للوصول إلى ما ينهي الأمر بحيث أن صاحب الحق الحقيقي يأخذ حقه، ولا يُظلم، وهذه هي قصة حيلة هذا

القاضي، ترى هل ما أقدم عليه القاضي جائز شرعاً؟

«حيلة القاضي ابن الدامغاني:

كان قد قتل بعض أولاد الأكابر والده، وطلب أقاربه قتله لأجل المال. فأجاز له الشرع قتله، وعُني القاضي بالصبي، فلم يشتد بأن يقتله، فصانع عمه على بعض المال، فلم يفعل، فأعطاه حتى ثلاثة أرباع المال، فلم يفعل، ولم يرد إلا القتل. فقال: خذه، واقتله.

ثم استدعى القاضي شخصاً من أمنائه، وقال له: اذهب إلى هذا الصبي، فإذا أراد عمه قتله فقل: لم يقتل هذا أباه، وإنما أنا قتلتَه.

وكان قد أوحى للصبي أيضاً أن: إذا قال الرجل هذا القول تقول: أنت في حل من دم أبي صدقة عن السلطان.

فلما أتى الشخص إلى عند الصبي، وقد كتّفه
عمه ليقتله قال: ما قتل هذا أباه، أنا قتلتَه.
فلزمه الناس، وخلوا الصبي، وقالوا له "
قم اقتل قاتل أبيك.
فقال: هو في حل من دم أبي صدقة عن
السلطان. وأطلق سبيله، وخلص الصبي، وأخذ
المال، ولم يظفر عمه بشيء غير الخيبة»^(١).
مرة أخرى هل يرضى الشرع بهذه الحيلة؟ لعل
الجواب الفصل بيد القضاة.

(١) السياسة والحيلة عند العرب، رفائق الحلل في دقائق الحيل،
(ص ٢١٢) نقله: رنية خوأم، راجعته: الدكتور نازك سابا يارد، دار
الساقى.

الحساب عند الله (١)

تمتلىء كتب التاريخ والآداب بالأكاذيب،
ليُخدم بالكذب أناس، وتشوّه سمعة آخرين.
والدوافع لهذا مختلفة، والأسباب متنوعة،
يغذيها الكذب البواح، والحقد الصراح، والغيرة
التي تأكل القلوب، والحسد الذي يحرق
الصدور والأحشاء، والغضب المتأجج، وقصر
النظر المميت، والطمع الذي يعمي العيون،
ونقص الدين الذي لا يردع صاحبه، ولا يهديه
إلى جادة الصواب.

فرد من قبيلة لسبب من الأسباب يقول زوراً
عن قبيلة معادية ما لم يأت منها، ونصير حاكم

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٣) السنة ٢٩ شوال

١٤٢٥ هـ الموافق ديسمبر ٢٠٠٤ م.

يؤلف قصصاً يشوه بها صفحة تاريخ حاكم
آخر، وصاحب مهنة حاسد أو حاقد يضع على
صاحب مهنة مالا يليق بمسلم أن يقدم عليه،
وفي قلبه ذرة من إيمان.

والواضعون لهذه الأكاذيب يحرصون حرصاً
متناهِياً في أن تكون الرواية مقبولة، فيتقنون
تسلسلها، واختيار رجال سندها، وإلباسها لباس
العصر، ومناسبة موقعها من المجتمع. ويستغلون
الاتجاه الذي يرونه نحو ضحيتهم، فلا يفوتون
فرصة لا ينتهزونها، ولا حادثة ملائمة
لا يستغلونها، ولا سانحة في صالحهم إلا
اصطادوا طائرهما، ولا موقفاً يصلح سلماً لما
يريدون أن يبرزوه، إلا سارعوا إلى تحويله إلى
فائدة تخدم غرضهم.

ويتعودون على هذا، ويغرم إنصات الناس

لهم، وانطلاء الكذب على من لا يزن الأمور
بمقياس العقل، ولا يحك أديمه بآلة تُري ما تحته
من زيف وإدعاء، فيتساهلون في الرواية، وإتقان
طرح الفكرة، فتبقى ثغرات واسعة لا يسدها
رقعة مما أحسن اختياره ولأن الحجاج كان هدفًا
للرماة من فئات مختلفة، حنقت عليه، لأنه ثبت
دعائم ملك بني أمية، وقضى على الخوارج،
وسكن جائش العراق، فأصبح غرضًا للسهام،
وأصبح لحمه على وضم. وهذه قصة فيها من
السذاجة ومن الكذب ما يستطيع كشفه أقل
تدبر، وينسى المخترع لهذه القصة أن الحجاج
مسلم، وقريب من عهد الرسول -صلى الله
عليه وسلم- وعليه محاسب هو الخليفة
عبد الملك، المعروف بفقهه، وينسى أن الحجاج
عنده عقل لا يقدم على ظلم واضح يفقده

احترام نفسه قبل أن يفقده من الناس، والحجاج
إن صح عنه بعض ما روي عن قسوته وحزمه
مع الخارجين على الدولة، والساعين للفتنة، فلا
يصح أن يعمد إلى الظلم والجور الذي وصفته
بهما هذه القصة المتدنية:

«قال عنبسة بن سعيد:

خرجت ليلة مع الحجاج، فرأى رجلاً واقفاً
على باب فقال له:

أما سمعت نداء الأمير؟

قال: بلى.

قال: فما حملك على الخروج؟

قال: كنت أأزم غريباً لي، فلما كان في هذا
الوقت جاءني إلى هاهنا، ودخل إلى هذه الدار،
وأنا لا أظن إلا أنها داره، وبقيت واقفاً ههنا.

قال: ما أراك إلا صادقاً. يا حرسى اضربا عنقه.

ثم مضى وأنا معه، فرأى رجلاً واقفاً، فقال له
مثل ذلك. فقال له:

كنت عند أمي، وهي مثقلة بالعلة، فأفاقت في
هذه الساعة، وجاءتني امرأة، فقالت:

قد ولدت امرأتك، فعزمتُ عليَّ أمي أن
أمضي، فخرجت، وهذا باب أمي، وهذا بابي.
فقال: ما أراك إلا صادقاً، يا حרسي اضربا عنقه.
ثم مضى وأنا معه، فرأى رجلاً شارباً، فقال:
ألم تسمع نداء الأمير؟
قال: بلى.

قال: فما حملك على الخروج؟
قال: خذلان الله، وأنا ماصّ كذا وكذا.
فقال: ما أحسبك إلا صادقاً. خلياً عنه»^(١).

(١) التذكرة الحمدونية، (ص ٤٦٢٠)، الجزء الأول.

لو قتل الحجاج الجميع لقل لعله أراد أن لا
يستهتر أحد بأوامره، أما أن يقتل المطالب بحقه،
والبار بأمه وزوجته، ويترك شارب الخمر حراً،
فمن الصعب قبول القصة.

حدّو القدّة بالقدّة (١)

قص علينا قاض قصة ممتعة، عن زواجه على أم أولاده، وقد أحست أنه متزوج من أخرى، فأخذت تتهمه وتستقره، وهو ينكر، ويحلف أيماناً مؤولة، ثم تهدأ لتعود مرة أخرى لتحاسبه، فاتفق مع زوجته الثانية أن تأتي يوماً، وتستنصحه عن زوجها الذي تعتقد أنه متزوج، ولا دليل معها عليه، فجاءت وجلست في بهو البيت مع الزوجة الأولى وهي لا تعرفها، ثم عاد الشيخ بعد صلاة الظهر، ومثلت الزوجة الثانية دورها بإتقان في التمثيلية المتفق عليها. فنصحها الشيخ - رحمه الله - بأن هذا من

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٤) السنة ٢٩ في ذي القعدة ١٤٢٥هـ/ يناير ٢٠٠٥م.

وساوس الشيطان، وعليها أن تستعيز بالله منه،
ثم أنهى حديثه بأن قال لها: إنك وأنت تتحدثين
كأنك تتحدثين عن زوجتي، فهي تفعل معي
مثل ما تفعلين مع زوجك، وأنا بريء من
التهمة، وأمامك الآن أعلن أنه إذا كان لي زوجة
خارج هذه الحجرة، فهي طالق ثلاثاً ثلاثاً.

فقامت الزوجة الأولى، وقبّلت ركبته،
وأقسمت أن لا تثير الموضوع مرة أخرى.

بعد سنوات من سماعي هذه القصة قرأت في
كتاب "«السياسة والحيلة عند العرب، رقائق
الحلل في دقائق الحيل» قصة تماثل هذه القصة،
فهل القدم وطئت جادة القدم، ولم يكن الشيخ
يعرف عن القصة التي في «رائق الحيل»، أو أنه
سبق أن قرأها واستفاد منها، وهذه هي القصة:

«حيلة القاضي أبي الحسين بن عقبة:

قال كانت لي ابنة عم موثرة (غنية) ولم تكن
حسنة، إلا أنني كنت أستعين بمالها، وأتزوج
سراً عنها، فإذا فطنت لذلك هجرتني، وضيق
عليّ، ونكدت عيشي حتى أطلّق الزوجة، وتعيد
إحسانها.

فتزوجت بعض المرات صبية كما في نفسي،
موافقة لطباعي، مساعدة على اختياري، فبقيت
معها مدة يسيرة، فسُعي يوماً إلى ابنة عمي،
فأخذت في النكد والمناقرة، والتضييق عليّ، ولم
يسهل عليّ فراقها.

فقلت لها يوماً: إلبسي أفخر ثيابك وأملحها،
وتبخري بعود، وادخلي على زوجتي، وابكي
بين يديها، وتضرعي حتى تضجريها، فإذا
سألتك عن حالك، فقول لي لها: لي ابن عم، كل
وقت يتزوج عليّ بمالي واحدة واحدة، ويضيع

مالي عليها، وأريد أن تسألني القاضي معونتي عليه، وإنصافي منه، فإنني أريد إحضاره، فإنها ترفعك إليّ.

فعملت ما أمرتها به، فلما دخلت عليها، وأعادت إليها ما علمتها إياه، قالت لها: وسيدنا القاضي شرٌّ من زوجك، وأدهى، ثم إنها دخلت عليّ، وهي غضبانة، ويد الصبية في يدها، وقالت: هذه المرأة حالها مثل حالي، فاسمع كلامها، وأنصفها من زوجها.

فقلت: ما شأنها، فذكرت ما علمتها إياه، فقلت لها: هل شاهدت زوجته؟ قالت: لا والله، فقلت: ياهذه، اتق الله فإن الناس لهم كربون، بحيث يفسدون أحوال الناس، فلا تقبلي شيئاً مما سمعته، فإن الحساد كثيرون، وهذه زوجتي قد نقل لها أنني تزوجت.

فقلت لي زوجتي: أي والله تزوجت، فقلت لها بجود: وكل امرأة لي بغير هذه الدار طالقة ثلاث بثلاث، إيش تقولين؟ قالت: صدقت والذي بلغني كذب. ومضت الأخرى إلى بيتها، وصفا عيشي معها كما أختار»^(١).

(١) السياسة والحيلة عند العرب، رفاق الحلل في دقائق الحيل، (ص ٢٠٠) نقله: رنية خوأم، مراجعة الدكتورة نازك سابا يارد، دار الساقى، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م.

نور المعرفة^(١)

إذا أراد الله بالإنسان خيراً هداه إلى ما ينفعه، ودله على ما ينجيه، وجعله ينظر إلى الجوانب المضيئة في الحياة، وفيما يعترضه فيها من أمور النظر فيها لا يعتمد على علم في الكتب، ولكنه يعتمد على إعمال الفكر في حدود المبادئ التي يؤمن بها الإنسان، والدين الذي يعتنقه، ويحثه على فعل الخير، والبعد عن الشر، وإسداء النفع للآخرين، والسعي لإبعاد الضرر عنهم، ما أمكنه ذلك، وما وصلت إليه طاقته.

وقد يتأصل هذا الاتجاه عند الإنسان، وتوغل عروقه ثابتة متمكنة فيه، فيبعد عن حب نفسه،

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٥) السنة ٢٩ في ذي الحجة ١٤٢٥هـ / يناير ٢٠٠٥م.

ونفعها على حساب آخرين هم في أشد الحاجة إلى ما استأثر به دونهم، ومرحلة وصول المرء إلى هذه الدرجة من نسيان النفس، وتذكر غيره، يوصل إلى ما يؤمل أن يكون رضى الله من نصيبه، يتلو ذلك أجر وثواب في الآخرة، وتوفيق إلى المزيد من فعل الخير، وإسداء النعم إلى من هو في حاجة إليها، في الدنيا.

يحتاج المرء ليصل إلى هذه الدرجات العُلى من حسن الخلق، وسماحة النفس، إلى دين متوغل في النفس، مسيطر على تصرفات المرء، وحركاته، يعضد هذا تربية حسنة، تمشي معه من الصغر من والديه، ومن غيرهم من مدرسين ومخالطين، مع قدوة حسنة عملها يجذب من يراقب تصرفاتها الحميدة، وأعمالها

المجيدة المقدرة.

هذا يتمثل في قصة خيرة، ترينا كيف يعمل
الفكر الخير، وكيف يصل صاحبه إلى ما
يرضي نفسه، لأن ما عمله فيه رضى الله،
وتلك هي السعادة التي لا يعرفها إلا من مرّ في
طريقها، وسكن في حضنها، وشرب من رحيق
خلاصتها، وهذه هي القصة، وهي تمثيلية قائمة
بذاتها:

«رُوي أن عابداً قدم قرصيه، ليتعشى، فعرض
له سائل، فأعطاه أحدهما، ثم قال:

ما ذاك بمشبعه، ولا هذا بمشبعي، ولأن يشبع
واحد خير من أن يجوع اثنان.

ثم ناوله القرص الآخر. فلما نام أتى في
منامه، فقبل له:

سل حاجتك؟

فقال: أن يُغاث الناس» (١).

لم يدعه حبه لإخوانه أن يذكر نفسه
وينسأهم. لقد ذكرهم، ونسي نفسه. رضي الله
عن هذه صفتهم.

(٢) التذكرة الحمدونية: (ص: ٢٣٢) الجزء الأول.

شرف اللغة (١)

كل أمة تفخر بلغتها، وتحافظ عليها، وترى فيها تميزاً عن غيرها، وتعد صورة من فكر الناطقين بها، والكاتبين. وقد يكون الحكم عليها بهذه الصورة مرده إلى معرفة المرء بلغته معرفة تامة، وإدراكه لمزاياها إدراكاً متغلغلاً في نفسه، يرن صدهاء في صدره ودمه، لا يرى فيه إلا الحسن، ولا يؤمل منه إلا الجود والجمال، فهو مسيطر على لبه، آخذ بتلايب إدراكه وفهمه.

وجهل المرء باللغات الأخرى يزيد من تعصبه للغة، وقد يكون يتكلم اللغة الأخرى ويكتبها، ولكن لم يتضلع بها تضلعه بلغته، وليس في

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٦) السنة ٣٠ في محرم ١٤٢٦هـ/ فبراير ٢٠٠٥م.

داخله صدى ذكريات شبابه وهو يلتهم لغته في البيت وفي الشارع وفي المدرسة وفي العمل، ولا يعرف عن اللغات الأخرى الجمال الذي يراه في لغته، ثم تأتي أحياناً العنصرية، وأذكر عندما كنت أدرس في إنجلترا أن ربة البيت التي كنت أسكن عندها هي وزوجها وولديها كانت تحذرنني من اللغة الأمريكية، وهي لا تعدها إنجليزية، وكانت تتألم وهي ترى الصحف بدأت تتأثر باللغة الأمريكية، فتقتبس من الصحف الأمريكية بعض التعبيرات، وبعض الألفاظ.

وتسمع أحياناً الإيطالي يفخر بأن لغته أسهل من اللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية، والإنجليزي يدعي هذه الدعوى للغته الإنجليزية، وكذلك الألماني والفرنسي. وكل هؤلاء عند الحاجة والنقاش بينهم، وبعد ضرب الأمثال

تضعف حجتهم، وينهار المكان الذي يقفون عليه؛ لأن الأحكام التي أطلقوها لم تأت من تأن ومقارنة وتجرد.

ونحن في لغتنا العربية نرى أنها أجمل اللغات، وأوفى اللغات في التعبير، وأدقها في اختيارها للمعاني المقصودة. وليس هذا أمراً جديداً على عصرنا بل هو قديم، ألفت فيه كتب، ووضع فيه قواعد، وألفت معاجم هي مفخرة للعقل العربي، وتركت لنا الأجيال السابقة تراثاً ضخماً في هذا المجال، ولنلق نظرة عجلى على نص يعطينا فكرة عن حكم أحد أبناء اللغة العربية عليها، ولقد قدم الزمن الذي جاء فيه هذا الحكم:

"ذكر عتبة بن أبي سفيان كلام العرب، فقال: إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السهام من

قسيّها، بكلمات مؤتلفات، إن فُسِّرت بغيرها
عَطِلت، وإن بدلت بسواها من الكلام
استُصعبت، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها
ممكنة، إذا سُمعت، وصعوبتها تعلمك أنها
مفقودة إذا طلبت، هم اللطيف فهمهم، النافع
علمهم، بلغتهم نزل القرآن، وبها يدرك البيان،
وكل نوع من معناه مباين لما سواه، والناس إلى
قولهم يعبرون، وبهداهم يأتون، أكثر الناس
أحلاماً، وأكرمهم أخلاقاً»^(١).

وكأنه أراد بهذا النص الأدبي أن يدل على
دعواه، ويؤكد ما ذهب إليه من رسم صورة
كلام العرب بهذه الصورة الباسمة.

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي
الحصري القيرواني. (ص: ٦١)، الجزء الثالث، تقديم وشرح
الدكتور صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية بيروت.

فكرة! (١)

بعض الأفكار تأتي غريبة، وقد تكون الغرابة التي في طبيعتها جاءت من طبيعة خطوة سابقة لها، وقد يكون مجرى الأولى خارجاً عن ما يأتي من العقل، أو يقبله العقل، ومن هذه الأمور ما يمليه الجهل، وتحكمه العاطفة.

وهذه قصة تشترك فيها النساء والرجال، فلو أنها حدثت لرجل فما موقفه منها ومن زوجه؟ لعل ما جر إلى الحكم فيها قاد إليه اللفظ، والأمر في ظاهره منطقي، لو لم يكن يحكمنا في ديننا نصوص واضحة:

«شكت أعرابية زوجها إلى صواحب لها، فقلن: طلقيه.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٧) السنة ٣٠ في صفر ١٤٢٦هـ / مارس ٢٠٠٥م.

فقالت: اشهدن أنه طالق ثلاثاً.
فاختصموا إلى والي الماء، فتكلمت، فقال لها:
إنيهاً أم فلان، لا تجوري فنحاربك، الزمي الطريق
المهيَّع، ودعي بنيات الطريق. كيف قلت؟
قالت قلت: هو طالق ثلاثاً.
ففكر الوالي ساعة، ثم قال:
أراك تحلين له، ولا أراه يحلّ لك». .
من المؤكد أن عقلية أولئك النساء اللاتي قبل
فكرهن أن تطلق امرأة زوجها، رغم أنه لم يضع
العصمة بيدها. سوف يقبلن حكم والي الماء.
وتبقى هناك حيرة، فالفعل الذي سوف يقدم
عليه الزوجان فيه إثم، على أساس هذه الفتيا،
وفيه أجر. ترى أي الكفتين أرجح؟!
الاحتكام إلى والي الماء يأتي بأحكام غير
متوقعة، ولكن ثقة في قضائه تنفذ، وتأتي

بنتيجة، أما العدل فيها فليس هو المرمى أو الهدف، وإنما الهدف الوصول إلى نتيجة حتى لو كان فيها مظلوم، ومن هذه الأحكام ما كان يسمى بحكم الطاغوت، وهو ما تعارف عليه الأعراب بينهم، وقبلوه.

«كان أعرابي باليمامة والياً على الماء، فإذا اختصم إليه اثنان، وأشكل عليه القضاء حبسهما جميعاً حتى يصطلحا، وقال: دواء اللبس الحبس^(١)».

وليس بعيداً عن هذا ما فعله أحد الولاة، فوضع سياسته كلها في خطبة واحدة، بين فيها ما سوف يسير عليه في قضائه بين الخصوم. وقد جاءت بالثمرة التي قصد أن يقطعها:

«ولي أعرابي تبالّة، فصعد المنبر، فما حمد الله

(١) التذكرة الحمدونية: (ص: ٤٦٥)، الجزء الأول.

ولا أثنى عليه، حتى قال:

اللهم اصلح عبدك وخليفتك، إن الأمير
أصلحه الله ولاني عليكم. وأيم الله ما أعرف
من الحق موضع سوطي هذا، فإني والله لا أوتى
بظالم ولا مظلوم إلا ضربته حتى يموت.
قال: فتعاطى القوم الحق بينهم فرقاً أن يتقدموا
إليه (١)».

إذاً قد أفادت هذه السياسة، والخلفاء إذا
أجهدهم ضبط أمر بلد أرسلوا إليها من يجحف
في حق أهلها حتى ينشغلوا بأنفسهم عن
الخلافة.

(١) التذكرة الحمدونية: (ص: ٤٦٥)، الجزء الأول.

شئ من الدرّ والجوهر^(١)

الأدب العربي فيه كثير من مظاهر حضارتنا،
وصور مجتمعات متلاحقة من ماضينا، نقرأ
فيها نضج الفكر، وحصيلة الحكمة، ونلمس
منها عمق الفهم للحياة من حول من كتبوا
وسجلوا، سواء أكانوا مبتدعين أو ناقلين،
مضيفين أو مفسرين.

لا تكاد تنتهي من كتاب من كتبهم إلا إلى البدء
في كتاب آخر، رياض من العلم، وحقول يانعة
من الأدب، وباقيات ورد من الشعر الرصين،
والنثر المدهش بإتقان، وحسن صوره، ودقة
معانيه، وصدق مراميّه، وإجادة مبانيه.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٨) السنة ٣٠ ربيع
الأول ١٤٢٦هـ/ أبريل ٢٠٠٥م.

في العصر العباسي، وهو عصر ازدهار الفكر الأدبي، رأينا الإبداع في القول والتأليف، ورأينا النقل المصور لحقبتهم، وحقبة من سبقهم، ورأينا الدقة في النقل، ورأينا الحرص على الأمانة في هذا، ولكننا رأينا أيضاً نقلاً اتصف بالتحيز، والتحامل، بعضه من السهل اكتشاف الخلل فيه، وبعضه حجب الإتيقان بعض ما كان بالإمكان اكتشافه، ونبذه، أو إرجاعه إلى أسبابه.

في هذا العصر أيضاً اقتبست آداب أمم لها باع في الحضارة، ثم وضعت في بوتقة العربية والإسلام، فجاءت مضيئة فوق إضاءاتها، ومقبولة أكثر من قبولها في وقتها، ووقت تدوينها، وأثرت التأثير الواضح في الفكر، وفي أسلوب الانتاج في الأدب.

هذا كله عند التفكير فيه يؤدي بنا إلى التبصر
فيما تركه بعض هؤلاء من حكم جاءت نتيجة
طول الملاحظة، ودقتها، ومدى سيرها في نفسها
ومع غيرها، وهذه تبقى عملاقة، لا يصل إليها
الشك، ولا يتطرق إليها الضعف، وتزيد مع
الزمن قوة، لأن مصدر قوتها فيها، والزمن في
جانبها لا ضدها. وهذه نماذج لما في ذهني عنها:

قال إبراهيم بن الجنيد: كان يقال:

أربع لا يتبغي لشريف أن يأنف منهن وإن كان
أميراً: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالم
يتعلم منه، والسؤال عما لا يعلم ممن هو أعلم
منه، وخدمة الضيف بنفسه إكراماً له.

هل هناك خامس يمكن أن يضاف إلى هذه
الأربع؟ لقد صدق هذا القول، وأصاب هذا
الفكر، وحسنت متابعة التجربة، وصفت النتيجة.

وهذه درة أخرى:

«قال حاتم الأصم:

كان يقال: العجلة من الشيطان إلا في خمس،
فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم:
إطعام الضيف إذا حل، وتجهيز الميت إذا مات،
وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا
حل، ووجوب، والتوبة من الذنب إذا وقع»^(١).
لا يجد المتبصر في هذا النص ما يمكن أن
يضيفه إليها، أو يدخله بين نظم لؤلئها، الذي
أضاء لأنه مقتبس من هديه؟ صلى الله عليه
وسلم.

(١) النصان في كتاب: «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي،
(ص: ١٩٣)، تقديم أحمد الطويلي، نشر دار بوسلامة للطباعة
والنشر والتوزيع، تونس.

الحجاج ومدوّنوا الأخبار^(١)

شغل الناس بالحجاج، فمنهم المادح ومنهم القادح، ولا يمدح السوق إلا من ربح فيه، ولا يذمه إلا من خسر فيه، ولا يكاد كتاب في التاريخ أو الأدب يخلو من رأي في الحجاج، في سيرته، وظلمه وقسوته، أو قوة دينه، وحسن لفظه، ونصاعة حجته، وصحة تفكيره.

من الصعب أن يخرج بصورة صحيحة عنه إلا بعد تمحيص النصوص كلها، وتعرضها للتحقيق، لمقارنة بعضها مع بعض، وعرضها على ما كان عليه المجتمع، والظروف التي كانت سائدة فيه، والحروب التي خيضت بين

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٣٩) السنة ٣٠ في ربيع الثاني ١٤٢٦هـ/ مايو ٢٠٠٥م.

المتنازعين، وفحص كل خبر مهما صغر،
لتستخرج منه حقيقة تفيد في بعض جوانب
الحكم المتكامل عن الحجاج، والذين عملوا
معه، والذين عمل لهم.

هناك أمور من السهل الحكم عليها بأنها
منحولة، إما لأن الإطار الذي وضع لها جاء
واسعاً عليها أو ضيقاً، أو أن الحادثة كانت نافعة
لأن تنقل من شخص لآخر، وأحد هؤلاء
الحجاج، ومن تلك القصص ذهابه للصيد،
ومقابلته لبعض الأعراب، وسؤالهم عن رأيهم
فيه، فيفرغون جام غضبهم عليه، ويشتمونه،
ويصفونه بالجور والظلم.

والقصة نفسها تنقل بحذافيرها وتركب على
حاكم ثان أو خليفة، ولا يدري القارئ أيهم
الذي حدث له حقيقة، هذا إذا كانت فعلاً

حدثت، أو لعلها ركبت، أو اقتبست، وبعضها يرجع إلى عهد كسرى، والعامل المشترك بينه وبين من الصقت بهم القصة فيما بعد: حب الصيد.

تبتسم أحياناً بعض جوانب سيرته، فيقال عنه قول يليق برجل حافظ للقرآن، أو تمن على أمة محمد في منطقة من مناطق الحكم، وهو أمر لا يرضى الحاملين عليه، والقصة الآتية تمثل هذه الإبتسامة:

قال الحسن: لقد وقذتني^(١) كلمة سمعتها من الحجاج.

قليل له: فإن كلام الحجاج ليقذك؟
قال: نعم، سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرءاً ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له

(١) الوقذ: شدة الضرب، ووقذه صرعه وغلبه.

حري أن تطول عليه حسرتة^(١).
الذي خاطبه الحسن في نفسه شئ على
الحجاج، وهو من الفريق الذي لا يرى أنه يأتي
من الحجاج خير، ولكن كلمة الحجاج التي
رواها الحسن ملأى بالخير، وملأى بقول الحق،
وحكمة مضيئة صادقة، رغم دهشة المندehش
المتعجب المتسائل.

(١) التذكرة الحمدونية: (ص: ٢٣) الجزء الأول.

اعط القوس باريها^(١)

كثيراً ما نسمع من أناس أن خريج الجامعة اليوم لا يستطيع أن يكتب خطاباً، ويستدلون على هذا بضعف الجامعات اليوم، وضحالة التدريس فيها، ويضيفون أن هناك من الرعيل الأول من لم يصل إلى المرحلة الثانوية، وأنه يستطيع أن يحرر الخطاب دون أن يحتاج إلى أن يكتب له مسودة. ولم يتنبهوا إلى أن الأمر أمر تدريب وتجربة، وأن خريج المرحلة المتوسطة الذي امتدحوه لم يصل إلى ما وصل إليه من حسن إعداد الخطابات إلا بعد تمرين طويل، لو أعطي خريج الجامعة ربع مدته لجاء متفوقاً على صاحبهم.

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٠) السنة ٣٠ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ / يونيو ٢٠٠٥م.

ومما يؤكد هذا نص قرأته في كتاب الإمتاع
والمؤانسة يؤكد ما ذهبنا إليه، والنص كالآتي:
حدثني النصري، أبو عبدالله، وكان يكتب
النوبة للمهلبى، بحديث مفند لأبي سعيد هذا
موضعه: قال: كنت أخط بين يدي التيمري، أبي
جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد،
فالتمسني يوماً لأن أجيب ابن العميد، أبا
الفضل عن كتاب، فلم يجدني. وكان أبو سعيد
السيرافي بحضرته، فظن أنه بفضل علمه أقوم
بالجواب من غيره، فتقدم إليه أن يكتب ويجيب،
فأطال في عمل نسخة كثر فيها الضرب
والإصلاح، ثم أخذ يحرر، والصيمري يقرأ ما
يكتبه، فوجده مخالفاً لجاري العادة لفظاً، مبيناً
لما يريد ترتيباً.

قال: ودخلت في تلك الحال، فتمثل الصيمري

بقول الشاعر:

يا باري القوس برياً ليس يصلحه
لا تظلم القوس، أعط القوس باريها
ثم قال لأبي سعيد: خفف عليك أيها الشيخ،
وادفع الكتاب إلى أبي عبدالله تلميذك ليجيب
عنه.

فخجل من هذا القول. فلما ابتدأت الجواب
من غير نسخة تحير مني أبو سعيد، ثم قال:
أيها الاستاذ ليس بمستنكر ما كان مني، ولا
بمستنكر ما كان منك، إن مال الفيء لا يصح في
بيت المال إلا بين مستخرج وجهبذ (المستخرج
جابي الأموال ومحصلها، والجهبذ: الناقد بالجد
والردى)، والكتاب جهابذة الكلام، والعلماء
مستخرجوه.

فتبسم الصيمري، وأعجبه ما سمع، وقال:

على كل حال ما أخليتنا من فائدة».

ويؤكد هذا الذي ذهبنا إليه، زيادة عما جاء في هذه القصة ما جاء في قصة أخرى لعلها أكثر بياناً، وأدق في إصابة الهدف الذي وضعناه حجة أمام دعوانا:

«كان أبو سعيد حسن الخط، ولقد أراد الصيمري أبو جعفر على الإنشاء والتحرير، فاستغنى وقال:

هذا أمر يحتاج فيه إلى دربة، وأنا عار منها.
وإلى سياسة وأنا غريب فيها: ومن العناء رياضة الهرم^(١).

أجل إن الكتابة تحتاج إلى دربة وتمرين لا إلى

(١) كتاب الإمتاع والمؤانسة، تأليف أبي حيان التوحيدي، تقديم أحمد الطويلي. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع. (ص: ١٠٦).

شهادة، وإذا لم يكن عند المرء استعداد للكتابة،
وليس عنده ملكة لها فمن الصعب أن ينجح
فيها، خاصة إذا كانت السن متقدمة بصاحبها.
فلا يلتفت خريج الجامعة إلى نقد مثل هذا،
ولا يجب أن يفت في عضده، فهو خلق لشيء
آخر، وإذا ما حاول الكتابة والتحرير فلا بد له
من التدريب والتمرين، والصبر والجلد، ومن
سار على الدرب وصل.

علم وعلم^(١)

ال خليفة هارون الرشيد عالم وفقهه، لأن أباه،
مثل بقية الخلفاء، حرص على تعليمه وتثقيفه،
واهتم بتربيته، وتابع تأديبه، ولم يغفل عن
تنشئته تنشئة تساعد على النجاح فيما يوكل
إليه من أمر في المستقبل، وضع له والده المنهج
الذي يجب أن يسير عليه معلمه، واختار له
خير المعلمين في التخصصات المختلفة، وأغدق
عليهم، وضمن بهذا أنهم سوف يخلصون في
عملهم، وستأتي النتيجة كما يريد.

وحديث هارون الرشيد مع الأصمعي عندما
اختاره أنيساً له، يحضر مجلسه، ويتحدث فيه،

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤١) السنة ٣٠ جمادى
الآخرة ١٤٢٦هـ/ يوليو ٢٠٠٥م.

ويستمع إلى ما يقال فيه، يدل على مدى ما أفاده علمه، ونفعته به دراسته. فمما قاله في توجيهه الأصمعي، لما يجب أن يكون عليه حين حضوره مجلسه وعند غيابه، وعند وجود الناس، أو خلوته به. نبهه إلى أن المعلومات لا تكفي حاملها، ولا بد أن يصحبها عقل يهديها إلى مستقرها، عندما يقتضي الأمر ذلك. وهذا التعليم للأصمعي يتحدث عن نفسه، وقد عده الأصمعي أثمن من الجوائز التي سوف يحصل عليها، أو تقرب المنزلة التي يؤملها.

«ومن الكلام البديع فيما يوصى به أتباع السلطان ما وصى به الرشيد الأصمعي في أول ما عزم على تأنيسه. قال له:

يا عبد الملك، أنت أحفظ منا، ونحن أعقل منك، لا تعلمنا في ملاء ولا تسرع إلى تذكيرنا

في خلاء، واطر كنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه فلا تزدد. وإياك والبدار إلى تصديقنا، أو شدة العجب بما يكون منا، وعلمنا من العلم ما نحتاج إليه على عتبات المنابر، وفي أعطاف الخطب، وفواصل مخاطبات، ودعنا من رواية حوشي الكلام، وغرائب الأشعار، وإياك وإطالة الحديث إلا أن يُستدعى ذلك. ومتى رأيتنا صادفين عن الحق فأرجعنا إليه ما استطعت، من غير تقرير بالخطأ، ولا إضجار بطول الترداد.

قال الأصمعي: أنا إلى حفظ هذا الكلام أحوج مني إلى كثير من البر^(١).

بجانب علمه لقد كان الرشيد عارفاً بعلم النفس، وما قد يأتي من المجلس العالم، فقد

(١) التذكرة الحمدونية، (ص: ٣٥٣)، الجزء الأول

يعمد إلى استعراض علمه، فأمره بالاختصار،
وعدم الحديث إلا عندما يطلب منه ذلك.
والرشيد يعرف سرعة بعض الجلساء إلى
النفاق، والتصديق المطلق للحاكم فيما يقول، أو
إظهار الدهشة في ذلك حتى لو كان الأمر غير
مدهش، وهذه صنوف معروفة من النفاق، وحثه
على إعادته لجادة الصواب إن جانب الحق
والعدل، ولكن بما لا يزيد عن الحاجة.
إنها قواعد ثابتة لكل جلس للسلطان، ومن لم
يراعها وقع في مآزق لا يعرف متنهاها.

حيرة من الحيرات (١)

عندما يقرأ أحدنا نصاً من التراث اتسم بالإتقان، كأن يكون رداً على سؤال، أو على ملاحظة أبديت، أو تعليق على قول قيل. ويأتي الرد وافياً ضافياً، كما لو كان معداً مسبقاً، يبدأ الشك يتطرق إلى الذهن في أن الخبر بكامله محبر، وأن واضعه قد قام ببحث مجهد، واستقصاء ملح، حتى وصل إلى ما جعل القول شافياً وملجماً، ولا مدخل عليه، لما أحاط الموضوع به من وفاء وإتقان.

ويكاد يجزم بالوضع، ولكن الانصاف يقتضي أن يحاول المرء أن يجد لمثل هذه البديهة الباهرة

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٢) السنة ٣٠ رجب

١٤٢٦هـ / أغسطس ٢٠٠٥م.

علة تجعلها مقبولة، تبعد الشبهة عن الوضع،
وتسمح بقبول القول كما قيل، والنظرة إليه
على أنه أصيل، والنتائج التي تبنى عليه سليمة.
وخير مثل على هذا النص الآتي:
«قال أبو حاتم:

كنت في حلقة أبي عبيدة، فجاء إلينا غلام من
آل المهلب، وَضِيَء الوجه، في منطقهِ لين، فكأن
القوم استقبحوا منطقهُ. فقال له رَجُل من آل
صباح ابن خاقان المنقري:

يا غلام ممن أنت؟

قال: من آل المهلب.

قال: ومن أمك؟

قال: سبية من القندهار.

قال: نزعْتَ (أثرت) فيكَ رخاوة الهند.

فبعث منه شيطاناً، فقال:

أيها المتكلم فمن أنت؟

قال: من بني تميم.

قال: أمكنت والله من مقاتلك. أم شبيبكم وفارسكم سوداء، وأم عتركم سوداء، وأم ذي الرقبة سبية من أمانيا، وأم عمرو بن العاص سبية من عنزة، وأم عبيد الله بن زياد ابن ظبيان سبية من أصفهان، وأم ابن زياد الذي مزقكم كل ممزق مرجانة، وأم زياد الذي شذخ رؤوسكم سمية، وأم الشعبي من جلولاء، وأم خالد بن عبدالله الذي غمركم نواله سبية من الروم، وأم وكيع بن الدورقية الذي أدرك ثأركم سبية من دورق، وأم عبدالله بن خازم الذي أباد غابركم بخراسان سبية، بأيتهن تعيب لا أم لك؟

ثم قام الغلام، فما بقي في الحلقة إلا ضاحكاً

أو شامتاً»(١).

قد يكون هذا الشاب من آل المهلب سبق أن
واجه موقفاً مماثلاً لهذا الموقف، فبحث ونقب،
وجاء بما جاء به من إفحام لخصمه. من هذا
الجانب يقبل أن النص أصيل، إن لم يرجح
الوجه الآخر!

(١) التذكرة، لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون
(ص: ١٧٩)، (مادة: ٨٣١) تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، دار
صادر، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م

هل الطبيعة تحكم؟ (١)

طبيعة الإنسان تحكمه، فإن كان لنا جاءت أحكامه لينة، وإن كان شديداً جاءت أحكامه شديدة، وقد تكون هذه الطبيعة تبلورت نتيجة تربية، استفادت من الاستعداد الفطري، فكرسته، وعمقته، أو تشكلت نتيجة حوادث في المجتمع أثرت تدريجاً، وفي زمن متلاحق، فصبغت الطبيعة صبغة جعلتها في صورة يصبح حكم صاحبها على الأمور صدى لما عليه نفسه.

ويولد الطفل، ويتأثر بتربية والديه، وبمحيطه، ويكون صورة لذلك المحيط، ويتعلم، فيتهدب بطبعه، وتشذب بعض الصفات فيه، ويبدأ

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٣) السنة ٣٠ شعبان ١٤٢٦هـ / سبتمبر ٢٠٠٥م.

يدرب نفسه على خير ما تعلم، ولا يتصرف، إذا
كان سليماً، إلا في حدود ما يمليه العقل،
وتوجهه إليه التجربة.

قرأت نصاً استوقف نظري، لأن فيه وجهتي
نظر، كلاهما يمكن أن تدعي لنفسها القوة،
وسلامة المنطق، وما تقتضيه طبيعة الأمور. ولعل
القارئ، حسب طبيعته، وثقافته، وتأثير مجتمعه،
يفضل واحدة على الأخرى. ومن المؤكد أن كلا
من المتحاجين نظر من زاوية مختلفة، فهل هذه
الزاوية جاءت من وحي الطبيعة، أو من وحي
التربية والثقافة، ونتاج التجربة؟ لعل الأمر يتبين
أكثر عندما نستعرض النص:

«لما استخلف المهدي أخرج من في السجون،
ف قيل له:

إنما تزري على أبيك.

فقال: لا أزرى على أبي، ولكن أبي حبس بالذنب، وأنا أعفو عنه.

الذي نبه المهدي إلى ما قد يكون في تصرفه من زراية بأبيه صادق في قوله، وكثير من الناس تقفز هذه الفكرة إلى ذهنه، لأن الناس سوف يرون التناقض في عمل الخليفتين، هذا يسجن وهذا يطلق. فالذين يرون أن حبس هؤلاء حزم، وتصرف يقضي على الجريمة، رأوا أن المهدي خالف الحزم، وأن هذا التراخي قد يزيد في الجريمة. أما الذين سوف يعجبهم عمل المهدي، لأنهم عدوا عمل والده فيه قسوة، وفيه تجاوز على العدل، سوف ينظرون إلى عمل المهدي نظرة إعجاب وتقدير.

أما المهدي فقد نظر من زاوية مختلفة لم تخطر على بال المعارض. ولعل المهدي فكر في العفو

عنهم قبل أن يفكر في الكلمات المتقنة التي صاغها أحسن صياغة، ولكن هذه الكلمات، بلا شك أبعدت عنه اللوم، لما فيها من إضاءة فكر، وإضاءة أسلوب، وإضاءة عاطفة.

والد المهدي سجن من سجن، وقد يكون هذا ما اقتضاه تثبيت أسس الحكم، مما يحتاج إلى حزم، يضاف إلى هذا معرفته بالجرم، والأمر في أوله، وفيه ما يثير الغضب أو التسامح، والمهدي أحسن أن الحكم توطد، ولن يزعزعه إخراج أفراد قضوا حق التأديب، واكتفى بما نالهم^(١).

(١) التذكرة، (ص: ١٨٤)، (مادة: ٨٤٩)، الجزء السابع، دار صادر بيروت، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، الطبعة الأولى ١٩٩٦م (محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون)

المروّة^(١)

المروّة كلمة مضيئة تجمع تحتها فضائل مقدرة، وهي على ألسنة الناس دائماً، ينطقون بها إذا وجدت، وينفونها إذا ارتفعت، إذا اتصف بها إنسان اعتلت منزلته عند الناس، وعلا مقامه في مجتمعه. إذا اتصف بها إنسان انتفع الناس منه، وجاء منه لهم خير عظيم، وإذا نقصت المروّة عند إنسان أصبح في مجتمعه عباً على نفسه، وعباً على غيره.

والمروّة أصل، ولها فروع، وفروعها إذا اجتمعت تعطيها النور الذي يراها الناس من خلاله. والمروّة لا تخفى بل هي تعلن عن نفسها

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٤) السنة ٣٠ في رمضان ١٤٢٦هـ / أكتوبر ٢٠٠٥م.

بلسان ذرب، وصوت مسموع، ومنطق حق،
وجاذبية لا تقاوم.

نسمع في مجتمعنا أن فلاناً ذو مروة، أو
صاحب مروة، أو عنده مروة، وخلافه من لا
عنده مروة، أو خال من المروة. فما المروة حقاً؟
هي ما رصده وشرحه مجيب سألها سائل، وهذا
هو السؤال، وهذا هو الجواب:

«سأل ابن زياد، رجلاً من الدهاقين:

ما المروة فيكم؟

قال: أربع خصال:

أن يعتزل الرجل الريبة، فلا يكون في شيء منها،
فإنه إذا كان مريباً كان ذليلاً ومن كان ذليلاً لم
تكن له مروة. وأن يصلح ماله، فإن من أفسد ماله
لم تكن له مروة. وأن يقوم لأهله بما يحتاجون
إليه، حتى يستغنوا به عن غيره، فإن من احتاج

أهله إلى الناس لم تكن له مروءة. وأن ينظر فيما
يوافقه من الطعام والشراب، فيلزمه، فإن المروءة
الا يخلط على نفسه في مطعمه ولا مشربه^(١).

هذه بعض أغصان دوحة المروءة، وهي كثيرة،
وكته، ولم تأت عليها، كلها، كلمات الدهقان،
ولكنه اقتصر على قليل منها، وغيره زاد:

ثلاث من المروءة:

تعاهد الرجل إخوانه، وإصلاح معيشته،
وإقالته في منزله^(٢).

وسئل العتّابي عن المروءة، فقال:
إخفاء ما لا يستحيا من إظهاره، ومواطأة
القلب اللسان^(٣).

(١) الموشى: (ص: ٥٢).

(٢) (ص: ٥٣).

(٣) الموشى: (ص: ٥٣).

وقيل:

إعلم أن من المروءة أيضاً عشر خصال:
لا مروءة لمن لم يكن فيه الحلم، والحياء،
وصدق اللهجة، وترك الغيبة، وحسن الخلق،
والعفو عند المقدرة، وبذل المعروف، وإنجاز
الوعد»(١).

وبعد:

فإن صاحب «الموشى» عنده المزيد.

(١) الموشى (ص: ٥٣).

خلف الوعد^(١)

خلف الوعد من أبرز الخصال المذمومة، المتصف بها مردول، وصاحبها محتقر، فهي مرفوضة لذاتها، لما تحتويه من استهانة بالآخرين، واحتقار لمن أعطي الوعد، وجانب من جوانبها الكذب، وهو من أقبح الصفات، وذو الضمير الحي، وصاحب الإحساس الإنساني إذا اضطر إلى إخلاف الوعد مرغماً، سارع إلى الاعتذار، وطرح الأسباب أمام من صار إخلاف الوعد معه، وبقي ثقل إخلاف الوعد حملاً ينوء به إلى أن يساعده الزمن على نسيانه، فتبهرت صورته، ولكن أي أمر له مساس به يذكره به، ولهذا

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٥) السنة ٣٠ في شوال ١٤٢٦هـ/ نوفمبر ٢٠٠٥م.

يعجب الإنسان من موت الإحساس عند أناس
اعتادوا على خلف الوعد، والتلذذ بذلك،
وتكراره بطرق متعددة.

والتحذير من إخلاف الوعد وارد في الشرع،
ومتعدد في مصادره المختلفة، ووارد بوضوح
على السنة الحكماء والشعراء، بأسلوب واضح،
وعبارات دقيقة، وبلهجة تُرعب ذا الكرامة
والاستقامة.

قال النبي -عليه الصلاة والسلام:
«ثلاث علامات في المنافق، وإن صام وصلى،
وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب، وإذا أُوْتِمِنَ
خان، وإذا وعد أخلف».

يكفي مخلف الوعد لآمة أنه -صلى الله عليه
وسلم- قرنه بالمنافق والكذاب.
وقال المشنى بن خازجة:

«لأن أموت عطشاً أحب إليّ من أن أخلف موعداً». لو تدبر مخلف الوعد عامداً هذا القول، وهو حرّاً لاستحيا من النظر إلى وجهه في المرأة، لأنه يرى في وجهه عدواً له: لم أسمع أن البخل خير من الجود والكرم إلا حينما يقترن الأمر بإخلاف الوعد، وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله:

أنشد إبراهيم بن محمد النحوي:
أنت الفتى كل الفتى
لو كنت تفعل ما تقول
لا خير في كذب الجوا
د، وحبذا صدق البخيل
ونبهوا إلى أن المرء قد لا يكون مضطراً إلى
الوعد، ويمكنه ألا يعد، وهذا خير له، لأن رد
طالب المعروف أهون من وعده ثم مطله، لأن

المطل يؤذيه خاصة إذا كان أمل فصدق بأنه سوف يعطى ما سأل.

وَأَنشُدْ فِي هَذَا يَعْقُوبُ بْنُ زَيْدِ التَّمَارِ:
إِذَا قُلْتُ فِي شَيْءٍ: نَعَمْ، فَأَتَمُّهُ
فَإِنَّ نَعْمَ دِينَ عَلَى الْحَرِّ وَاجِبٌ
وِإِلَّا فَقُلْ: لَا، فَاسْتَرْحْ، وَارْحَ بِهَا
لَكِي لَا يَقُولُ النَّاسُ إِنَّكَ كَاذِبٌ
وَأَنشُدْ:

لا تقولن إذا لم ترد
أن يتم الوعد في شيء نعم
وإذا قلت نعم فامض بها
بنجاح الوعد، إن الخلف ذم^(١)

(١) النصوص التي مرت في صفحتي: (٥٦، ٥٧) من كتاب الموشى.

وكان يقال لكل شيء آفة، وآفة المعروف
المطل.

وقُبِحَ إخلاف الوعد يدخل في الأمر الجليل
والأمر الحقير، فوعدك بإعطاء نوال، ووعدك
بالمساهمة في إنجاح قصد، أو إزالة كربة،
ووعدك بأن تلتقي بشخص في موعد بعينه،
كلها متساوية في قبحها، والمحذور المرتبط بها.

مقدرة الشاعر^(١)

الشعر أداة للتعبير راقية، ووسيلة نافذة. وكلمما أجاد الشاعر بلغ المراد، يضع بينه وبين السامع جسراً قوياً تمر من فوقه المعاني، فلا هو يهتز، ولا هي تضطرب، وكلمما صار الشاعر فطحلاً جاء سحره بالغاً، وتأثيره كاسحاً.

والشعراء يعرف بعضهم بعضاً، ويعرفهم الضليع في الأدب، العارف بالشعر، المدرك لدرجاته، المتعمق في معانيه ومراميها. وقد يبتدع الشاعر معنى يبرز به غيره، ويعرف عنه هذا المعنى، فيأخذه الشعراء منه، ويصوغونه صياغة أخرى، قد يكون الاقتباس فيها واضحاً، يعرفه كل من

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٦) السنة ٣٠ في ذي القعدة ١٤٢٦هـ / ديسمبر ٢٠٠٥م.

عرف النصين، وقد يكون الاقتباس ذكياً، بعيداً
عن إدراك من لا يكون من خبراء هذا الفن.

وبعض الشعراء يأخذ معاني غيره فيزيه في
السبك، والصور التي يرسم بها أفكاره، وقد يعرف
بهذه الأبيات، ويشتهر بسببها، وقد يظن أنه صاحب
ابتكارها. والشعراء صقور حرّار يقتنصون المعاني
والصور قبل غيرهم، ثم يأخذونها ويلبسونها ثياباً
صبغتها منهم، ويحيط بها أسلوبهم في قول الشعر.
فكم اقتبس من المتنبي، وكم اقتبس من المعري، وكم
اقتبس من ابن الرومي، وكم اقتبس من جرير
والفرزدق، وعمر بن أبي ربيعة، وأمثالهم من
الشعراء المبرزين، الذين وضع شعرهم على المائدة،
ليصبح مباحاً لمن يتناول.

ويرتفع الشعر الذي فيه معنى مبتكر، حوى
معنىً مليئاً بالحكمة، أو الصورة الجميلة، يلتقطه

العارفون بالجواهر والدرر، ويصبح على
لسانهم، فيتنبه الناس لقيمته، فيرددونه مثلاً في
كلامهم، إذا جاء أمر ينطبق عليه ما فيه من
معنى أو صورة. استوقفني بيتان فيهما ما ذكرت
وهما لعلي بن الجهم، وقد هجاه من تجرباً على
القفز فوق سور حصانته. قال:

بلاء ليس يشبهه بلاء
عداوة غير ذي حسب ودين
ييحك منه عرضاً لم يصنه
ويرتع منك في عرض مصون^(١)
أليس هذا القول هو الصدق بعينه، ألبس يمر بنا
مثل هذا الموقف في حياتنا، معنا، أو مع من نعرف؟

(١) جمع الجواهر في الملح والنوادر (ص: ١٢٠) لأبي إسحاق إبراهيم بن
علي الحصري القيرواني. تحقيق: علي محمد البجاري. الطبعة الثانية، دار
الجيل - بيروت.

القيولة للقاضي^(١)

كانت القيلولة في الماضي مهمة للكبار ، ولها برنامجها الثابت قبل صلاة الظهر ، وهي حيثئذ مرتبطة عند الصغار والكبار بالشياطين ، التي معروف عنها في زمننا أنها لا تقيل ، يؤكد هذه النظرة قصة تروى في منطقة القصيم عن قاض عين في إحدى القرى هناك ، ، وقد جرت العادة أن يتبع هذه القرية قرى أخرى ، يجيء أهلها عند الحاجة إلى هذا القاضي لحل مشاكلهم ، أو إفتائهم في أمر التبس عليهم.

سمع أهل إحدى القرى بتعيين قاض في قرية كبرى ، فجاء أهل إحدى القرى الصغرى عندما سمعوا عنه ، وطرقوا بابه وقت القيلولة، وهو

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٧) السنة ٣٠ في ذي الحجة ١٤٢٦هـ/ يناير ٢٠٠٦م.

الوقت الذي يرتاحون فيه من أمور مزارعهم،
من (سَنِي) وحرث وسقي .
فقال لهم : من الطارق ؟
قالوا : متقاضون .

قال : قيلوا فإن الشياطين لا تقيل .
قالوا : الذي يأخذ في السنة كذا صاعا وكذا
وزنة من الحب والتمر لا يقيل .
مشيرين بذلك إلى ما يحصل عليه القاضي من
بيت المال ، مقابل عمله .

قال : من أين أنتم .
قالوا : من القرية الفلانية .
قال : صحّ ظني ، لأنني أعرف أنه ليس منكم
إلا أعوج .

قالوا : هل يأتيك إلا الأعرج .
قال : والزبدة ؟

قالوا : لا زبدة إلا بعد خضّ . اخرج ، بارك
الله فيك ، واقض بيننا .

فخرج ، وجلس كالمعتاد على عتبة داره ،
وقضى بينهم . فانصرفوا .

وهذا يؤكد أموراً متعددة ، إحداها ما يراه
الناس من نشاط الشياطين وقت القيلولة ، وقد
نام الناطور ، وانطلق الشياطين الصغار يعبثون
بما يستطيعون العبث به ، وما يلد لهم من لعب
وصخب ، ويأتون - على حد تعبير من يعاني
منهم - بما لا يستطيع الشياطين الحقيقيون أن
يأتوا به .

وثانيها تتضح بساطة الناس في تلك الأزمان ،
ونظرتهم غير المتكلفة إلى الأمور ، فهؤلاء
المتحاكمون اختاروا الوقت الذي يحلو لهم
المجيء فيه ، ولم يخطر في ذهنهم أن يتحروا

الوقت المناسب للقاضي ، وهذا معروف لمن يفكر من أهل المدن ، وعادة يأتي المتخاصمون إلى القاضي في المسجد بعد إحدى الصلوات ، أو وهو في الطريق ، أو وهو قاعد عند أحد أصحاب الدكاكين ، أو يأتون إليه في بيته حسب رغبتهم بين صلاتين ، أو في موعد يحدده لهم.

وثالثها هذا الجدل المنطقي الذي سار على قضيب سلس من التابع ، جاء خطوة خطوة ، قول منه ورد منهم ، وقول منهم ورد منه ، وانتهى الأخذ والرد بعد نفاد حصيلة الجدل ، ووضوح الأمر للقاضي بأنه لا مناص من الاستجابة ، والله المستعان .

ورابعها ما يوحى به التعيين في قرية واحدة تتبعها قرى متعددة ، والسب الذي مكن من هذا

هو أن المتخاصمين قليل ، ومن يأتي للشيخ
القاضي يأتي غالباً مستنصحاً أو مستفتياً ، لإبراء
الذمة ، والاستنارة بما يطلبه الشرع.

جواهر في إناء صفيح

بعض القصص في الأدب العربي تشد
فتصرف القارئ عن التفكير في صحتها أو
اختلافها ، ويعمد قارئها إلى إلغاء التفكير هذا
تجاهها ، ويأخذها على علاتها ، ويتلذذ بما فيها
من متعة الطرافة ، وجمال منطق العرض .
وأمامي الآن قصة من هذا النوع ، انتهت بعباء
جزيل بسبب كذبة ، وبهذا استحقت عنوان :
جواهر في إناء صفيح :

«كان بالبصرة ثلاثة إخوان ، يتعاشرون ولا
يفترقون ؛ اثنان شاعران ، والآخر منجم ، لا
يحسن شيئاً ، ففني ما بأيدهم ، فخرج الشاعران
إلى بغداد ، فمدحا من كان بها من الأشراف ،
فرجعا وقد اعتقدا (حصلا) أموالاً نفيسة ، وبقي

صاحبهما في فقره .

فقالا له : لو ذهبت ، فتسببت .

فقال : مالي صناعة ، ولا عندي بضاعة .

فقالا : على كل حال معك ظرف ، ولك

لطف .

فخرج إلى بغداد ، واتصل بيقطين بن موسى ،

وقال : ما أتيت إليك بشيء ، غير أنني أكذب

الناس . فضحك ، وخف على قلبه . فكان في

جملة حاشيته . فغضب المهدي على عبدالله بن

مالك الخزاعي ؛ فأتاه الرجل ، وهو من المهدي

في أشد السخط ، وقد ألزمه داره ، فقال

للحاجب :

استأذن على الأمير ، وقل له :

رسول الأمير يقطين بالباب :

فدخل ، وخرج له بالإذن ، فدخل . وقال :

الأمير يقول لك :

اليوم كنت عند أمير المؤمنين ، فذكرته سالف
حقوقك ، وقديم خدمتك ، فعفا عنك ، وأمرك
بالركوب غداً ، ليخلع عليك ، ويجدد الرضا
عنك بمحضر الناس .

فَسُرَّ عبدالله بذلك ، ودفع إلى الرجل مالاً ،
وبكر إلى دار المهدي ، فاستأذن عليه ، فلما
دخل ، قال :

ما جاء بك ؟ قبحك الله ! وقد أمرنا بلزوم
دارك ؟

قال : أو ما رضيت عني ، يا أمير المؤمنين ،
وأمرت يقطينا بإحضاري ؟

فقال : إذاً لا رضي الله عني ، ولا خطر هذا
بقلبي .

قال : فرسوله أثناني بذلك .

قال : علي بيقطين .

فأتني به ، فقال :

أتكذب عليّ ، وتحكي عليّ ما لم أقله؟

قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال : زعمت أنني رضيت عن هذا .

قال يقطين : وأيمان البيعة^(١) يا أمير المؤمنين، إن

كنت سمعت بشيء من هذا أو قلته .

قال عبدالله : بل أتاني رسولك فلان .

فبعث خلف الرجل بحضرة المهدي . فلما

حضر ، قال :

ما هذا الذي فعلت ؟

قال : يا سيدي ، هذا بعض ذلك المتاع ، بدأت

في نشره خوفاً عليه من السوس .

(١) لا يجوز الحلف بغير الله ، لأن الحلف بغير الله شرك ، أما

إذا كانت أيمان البيعة في الأصل حلف بالله ، وأنه بهذا أحال إلى

حلف بالله ، فالأمر مختلف .

فقال المهدي : ما يقول ؟

فأخبره يقطين بأول أمره معه . فضحك المهدي ،
وجدد الرضا عن عبدالله بن مالك ، ووصل
الرجل بصلة جزيلة ، ووصله عبدالله بأوفر
صلة . فانصرف إلى صاحبيه ، واسع النعمة ،
عظيم المال».

وقد قدم صاحب كتاب : "جمع الجواهر" لهذا
بقوله ، عنواناً : «الملح تبلّغ المطالب ، وترفع من
لا قدم لقومه». ثم بدأ الباب بقوله : «وكم
أفادت من الرغائب ، وبلّغت من المطالب ،
ورفعت من لا قدم لقومه ، ولا أمس ليومه»^(١).

(١) جمع الجواهر ، في الملح والنوادر ، لأبي إسحاق إبراهيم بن
علي الحصري القيرواني (ص: ٢٤) ، دار الجيل ، بيروت : الطبعة
الثانية، تحقيق : علي محمد البجاوي.

لقد صدق فكم رأينا من إنسان تتعداه عين
الرائي ، يكون زينة المجلس ، ونور النادي ،
وكم ظريفة تأتي من مثل هذا تحل إشكالا ، أو
ترفع ضيما ، أو تأتي برزق لمحتاج .

أمور روحية^(١)

قطع الإنسان شوطاً بعيداً في الإنجازات المادية،
فاخترع وطور، وحوّر وغير، وابتكر ما كان فيه
راحة لأبناء جنسه، وما كان فيه تفوق بصرف
النظر عن فائدته أو مضرته.

أبدع في البناء، وفي رصف الطرقات، وفي
نصب الجسور، وفي إنشاء الموانئ، واخترع
بواخر تمخر العباب، يزيد في تحسينها سنة بعد
أخرى، واخترع الطائرات وطورها، واخترع
الهاتف، ووسائل الاتصالات المتعددة، وبهر
العالم بالحاسوب، وقبل هذا وذاك قدم للعصر
الحديث الكهرباء عماد كل ما هو مظهر من

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٩) السنة ٣١ صفر
١٤٢٧هـ/ مارس ٢٠٠٦م.

مظاهر حضارة اليوم.

ولكن الإنسان وقف حائراً أمام الأمور الروحية، لا يستطيع أن يزيد من وصف ما ظهر منها كما ظهر، أما كنهه فبقي لله وحده، تنافس الأمريكان والروس في وقت مضى، ولم يبعدوا عن مكان البدء كثيراً..

الأنبياء جاؤا من عند الله بالمعجزات، التي لم يستطع الناس معرفة كيف أمكن أن تتم، وآمن المؤمنون تقوى وطاعة، وسلموا بما جاء به الرسل، واكتفوا بالإيمان، واطمأنوا إلى ذلك، فإذا حدث لأحدهم أمر من الأمور الروحية اكتفوا بمظهر الأمر، ولكنهم الآن يحاولون أن يقارنوا الحوادث لعل المقارنة توحى لهم بشيء من القواعد التي تسير في حدودها هذه الأمور.

كان الغربيون يهزؤون بتاريخ المسلمين الذي

يروي قصة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ومخاطبته لسارية، على بعده منه، وسماع سارية لأمر عمر، وانصياعه له، وما أتى منه من نتيجة متوخاة، ثم لما أحصوا الحوادث التي تماثل موقف عمر، عادوا إلى قصته، وصاروا يفتتحون بها كتبهم عن «التلبيثي» ويضعونها أمامهم للدراسة، ووضعها في إطار ما جمعه أُملاً في أن تفتح لهم باباً يلجئون منه إلى عالم الروحانيات المقفل.

أورد سبط ابن الجوزي قصة عمر مع سارية، في كتابه: «الجليس الصالح، والأنيس الناصح» فقال رواية عن أسلم عن أبيه، قال:

«خرج عمر بن الخطاب يوم الجمعة، فصعد المنبر، ثم صاح: يا سارية الجبل: الجبل يا سارية الجبل. قالها مرتين.. ثم خطب، فأرخت تلك

الساعة، فوصل سارية من نهاوند، وبين نهاوند
والمدينة مسيرة ثلاثة أشهر، (وقال): إن العدو
نزل الوادي، فكمن لنا، فسمعنا صوتاً يقول:
الجبل الجبل، فصعدنا إلى الجبل، فملكنا العدو،
فقتلنا وأسرنا، وفتح الله علينا، وفتحنا البلد،
فنظروا، فكان اليوم الذي صاح فيه عمر. ف قيل
لعمر: ما كان الكلام الذي قلته.
فقال: والله ما ألقىت له بالاً، وإنما شيء
جرى على لساني»^(١).

(١) صفحة ٦٨ فصل العدل وإغاثة الملهوف.

الشيب الشيب (١)

الشيب شغل من خلف الشباب خلفه، يتطلع
خلفه إلى ماضيه، فيتحسر على شبابه الذي
انقضى، وقوته التي ضعفت، وينظر إلى
الشيب، ويرقب اشتعاله في شعره، وديبه في
جسمه. يصبح الشيب هو الشغل الشاغل لمن
دخل طور المشيب. إن جلس مع من شاب أخذ
يشاطره الأحزان على ذهاب الشباب، ومجيء
الشيب:

ذهب الشباب فماله من عودة
وأتى المشيب فأين منه المهرب
وأقصى ما على من شاب أنه لم يعد محط أنظار

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٥١) السنة ٣١ ربيع
الآخر ١٤٢٧هـ / مايو ٢٠٠٦م.

الفتيات، فإن أبدين التفاتاً له فهو التفات عطف
ورحمة، وهذا يؤرقه أكثر، لأنه يؤكد ضياع ما
كان مصدر مباهاة له في شبابه.

والشعراء تفننوا في إبداء شعورهم تجاه إطلالة
الشب، وغروب شمس الشباب، ويكاد لا يبقى
معنى يتصل بهذا الأمر لم يقولوا فيه شعراً، وتفننوا
في هذا، واخترعوا أفكاراً أوحى بها الاستعارة،
وما في البديع من تعبير راق، وجمل بهجة. ومن
يتلقى هذه الأشعار بحفاوة وإجلال عدد كبير ممن
يجدون فيما يقال تعبيراً جيداً عما يشعرون به.

ومن الأقوال المبدعة في الردّ على من انتقص
الشب، قول محمد بن عبد الملك الزيّات، وزير
المعتصم:

وعائب عابني لشيبي
لم يعد، لما أَلَمَّ، وقتَه

قلت له قول ذي صواب
ياعائب الشيب لا بلغته^(١)
وعوف بن محلم الشيباني يقرر حقيقة مرّ بها.
قال من قصيدة يمدح بها عبدالله بن طاهر. وقد
صارت لصدقها، وحسن تصويرها، ودقة
معناها، على الألسنة:

يا ابن الذي دان له المشرقان
وألبس العدل به المغربان
إن الثمانين وبلغتها

قد أحوجت سمعي إلى ترجمان^(٢)
ويبدع أبو الفتح كشاجم في معنى أتى به،
رسم فيه صورة لعله لم يسبق إليها، اختلط فيها
جمال اللفظ مع جمال الأسلوب، مع المنطق

(١) خاص الخاص للثعالبي (ص: ١٧٥).

(٢) خاص الخاص للثعالبي (ص: ١٧٨).

الموحي بالعدل الذي يطلبه كل أحد، يقول

كشاجم:

وفكرت في شيب الفتى وشبابه

فأيقنت أن الحق للشيب واجب

يصاحبني شرح الشباب فينقضي

وشيبي إلى حين الممات مصاحب^(٣)

هذه لمحات سريعة، وصور قليلة من صور لا

تكاد تحصى عن الشيب وحلوله، وثقله على

النفوس.

(١) خاص الخاص للثعالبي (ص: ١٧٤).

ما القصد من هذا؟ (١)

عندما نجد نصّاً في التراث يشير إلى ما نعتقد عدم صحته، فنحن أحياناً في حيرة إذا أردنا أن نعرف الداعي إلى ابتداء خبر غير صحيح، أو نقله، أو الترويج له. وقد نحدس الأسباب في ضوء ظروف المجتمع الذي قيلت فيه القصة عنه، فنرجعه إلى المنافسة بين فئتين، بينهما ما يوجب الحزازة، كأن تكون بين قبيلتين، أو دولتين، أو طائفتين دينيتين، أو مهنتين متنافستين، أو أن يكون عادة بين سكان الصحراء وسكان المدن، أو حماس مريدين أو معجبين بشخص رأوا أنه يستحق أن يؤلف من

(١) نشرت في «المجلة العربية» العدد (٣٤٠) السنة ٣١ ربيع الأول ١٤٢٧هـ/ أبريل ٢٠٠٦م.

أجله ما يزيد في الرفع من مقامه، أو حاقدين،
أو غاضبين، أو كارهين لشخص يرون فيما
يؤلف ما يساعد على الخفض من شأنه، وصرف
الناس عنه وتشويه سمعته، والنيل منه.

وبالنظر إلى بعض ما كتب في الأدب العربي،
وتاريخه وما ورد فيه من أحكام، أو قصص نجد
أنه تنبه للباطل فيها نقاد قبلنا، رأوا مداخل
واسعة لإلقاء الضوء على الإفتئات الذي جاء
فيما كتب، وفيما تناقله الرواة، أحياناً لأن له
صدى في ذهن الناقل، لتمشيه مع ما يضمه
لهذه القبيلة، أو لهذه الدولة، أو لهذه الفئة، أو
لهذه الأسرة. أو لأن فيه طرافة، وفيه تسلية،
ويصلح لحديث المجالس، ولا يفكر في الإثم
الذي يلحق بقائل الباطل، وسامعه المشجع على
الحديث في هذه الأمور.

هنا نص فيه طرافة، وقد يكون فيه رائحة سياسة،
وقد تنبه له صاحب كتاب «جمع الجواهر في الملح
والنوادير» الحصري وهذا هو النص:

«حكى الجاحظ عن الشرقي بن القطامي أن
ابن أبي عتيق لقي عائشة -رضي الله عنها-
على بغلة. فقال:

إلى أين، يا أمّاه؟

ف قالت له: أصلح بين حين تقاتلا.

فقال: عزمت عليك إلا ما رجعت، فما غسلنا
أيدينا من يوم الجمل حتى نرجع إلى يوم
البغلة».

وقد لاحظ الحصري الخلل في هذا الخبر،
والوضع في هذه القصة، وحكم حكمه في ضوء
الظرف الذي يعرفه عن ذلك المجتمع، وما حدث
فيه، وما يدور فيه، فعلق على هذا بقوله:

«وهذه حكاية أوردتها الشرقي لغله ودغله،
على وجه النادرة، لتحفظ، ويضحك منها،
ويتعلق بها من ضعف عمله، وقل عزمه، فيكون
ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض
لِعَرَض أم المؤمنين رضي الله عنها.
ومثل هذا كثير مما لو ذكرته لدخلت فيما
أنكرته، فقد قيل: الراوية أحد الشامتين، كما
قيل: السامع أحد القائلين»^(١).

(١) جمع الجواهر في الملح والنوادر، لإبراهيم علي الحصري،
ص (٤)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٣ م.

١- فهرس المواضيع حسب ورودها

- (١) مقدمة ٥
- (٢) الكرامة وثمرتها ١٠
- (٣) ولي الأمر والقضاء ١٦
- (٤) الرشاقة وخفة البدن ٢٤
- (٥) ما لهذا إلا هذا ٢٨
- (٦) الداعي ٣٤
- (٧) من يصدق هذا؟! ٤٠
- (٨) من أوابد الأصمعي ٤٥
- (٩) حيلة ولازمها ٥١
- (١٠) جدل ولا جدل ٥٨
- (١١) ضرب من صلة الرحم ٦٥
- (١٢) ثلاثة وثلاث ٧٠
- (١٣) العدل مضيء ٧٣

- (١٤) خمسة أسس ٧٧
- (١٥) من النصائح ٨٢
- (١٦) نفاق وكذب ٨٧
- (١٧) سلّم النفاق ٩١
- (١٨) ما لونها ؟ ٩٦
- (١٩) السفر ومتطلباته ١٠١
- (٢٠) حنان البنات ١٠٧
- (٢١) الشعر سحر ١١١
- (٢٢) العقل جوهرة ١١٦
- (٢٣) الأمثال وموقعها ١١٩
- (٢٤) فاكهة المشيب ١٢٣
- (٢٥) الزوجة وضررتها ١٢٨
- (٢٦) بهجة الشعر ١٣٣
- (٢٧) قناديل أقوال ١٣٨
- (٢٨) طبع وصناعة ١٤٤

١٥٠	(٢٩) الأناة والرأي الفطير
١٥٦	(٣٠) مأزق ومخرج
١٦٣	(٣١) عضد على عضد
١٦٧	(٣٢) قوة الحجة
١٧٣	(٣٣) مرامي اللبابة
١٧٩	(٣٤) شذى العطر
١٨٦	(٣٥) عمرو ومعاوية
١٩١	(٣٦) منطق ولا عدل
١٩٨	(٣٧) بريق الأدب
٢٠٤	(٣٨) إشعاع الإيمان
٢٠٨	(٣٩) سحر الحكم
٢١٣	(٤٠) كلام الملوك ملوك الكلام
٢١٨	(٤١) أطبع أم افتتاب
٢٢٢	(٤٢) هل من دمة؟
٢٢٧	(٤٣) قيمة الأناة

- (٤٤) ضالة المؤمن ٢٣٤
- (٤٥) قافلة ومأتم ٢٣٩
- (٤٦) حرفة الأدب ٢٤٦
- (٤٧) القضاة والعلم والتجربة ٢٥٠
- (٤٨) الحساب عند الله ٢٥٥
- (٤٩) حذو القُذَّة بالقُذَّة ٢٦١
- (٥٠) نور المعرفة ٢٦٦
- (٥١) شرف اللغة ٢٧٠
- (٥٢) فكرة ٢٧٤
- (٥٣) شيء من الدرّ والجوهر ٢٧٨
- (٥٤) الحجاج ومدوّنوا الأخبار ٢٨٢
- (٥٥) اعط القوس باريها ٢٨٦
- (٥٦) علم وعلم ٢٩١
- (٥٧) حيرة من الحيرات ٢٩٥
- (٥٨) هل الطبيعة تحكم ٢٩٩

٣٠٣	(٥٩) المروّة
٣٠٧	(٦٠) خُلف الوعد
٣١٢	(٦١) مقدرة الشاعر
٣١٥	(٦٢) القيلولة للقاضي
٣٢٠	(٦٣) جواهر في إناء صفيح
٣٢٦	(٦٤) أمور روحية
٣٣٠	(٦٥) الشيب الشيب
٣٣٤	(٦٦) ما القصد من هذا؟

٢- فهرس الموضوعات حسب حروب الهجاء

- (١) إشعاع الإيمان ٢٠٤
- (٢) أطبع أم افتتاب ٢١٨
- (٣) الأمثال وموقعها ١١٩
- (٤) أمور روحية ٣٢٦
- (٥) الأناة والرأي الفطير ١٥٠
- (٦) بريق الأدب ١٩٨
- (٧) بهجة الشعر ١٣٣
- (٨) ثلاثة وثلاث ٧٠
- (٩) جدل ولا جدل ٥٨
- (١٠) جواهر في إناء صفيح ٣٢٠
- (١١) الحجاج ومدونو الأخبار ٢٨٢
- (١٢) حذو القُذَّة بالقُذَّة ٢٦١
- (١٣) حرفة الأدب ٢٤٦

- (١٤) الحساب عند الله ٢٥٥
- (١٥) حنان البنات ١٠٧
- (١٦) حيرة من الحيرات ٢٩٥
- (١٧) حيلة ولازمها ٥١
- (١٨) خُلف الوعد ٣٠٧
- (١٩) خمسة أسس ٧٧
- (٢٠) الدّاعي ٣٤
- (٢١) الرشاقة وخفة البدن ٢٤
- (٢٢) الزوجة وضرتها ١٢٨
- (٢٣) سحر الحكم ٢٠٨
- (٢٤) السّفَر ومتطلباته ١٠١
- (٢٥) سلّم النفاق ٩١
- (٢٦) شذى العطر ١٧٩
- (٢٧) شرف اللغة ٢٧٠
- (٢٨) الشعر سحر ١١١

- (٢٩) شيء من الدرّ والجوهر ٢٧٨
- (٣٠) الشيب الشيب ٣٣٠
- (٣١) ضالة المؤمن ٢٣٤
- (٣٢) ضرب من صلة الرحم ٦٥
- (٣٣) طبع وصنعه ١٤٤
- (٣٤) العدل مضيء ٧٣
- (٣٥) عضد على عضد ١٦٣
- (٣٦) العقل جوهرة ١١٦
- (٣٧) علم وعلم ٢٩١
- (٣٨) عمرو ومعاوية ١٨٦
- (٣٩) فاكهة المشيب ١٢٣
- (٤٠) فكرة ٢٧٤
- (٤١) قافلة ومأتم ٢٣٩
- (٤٢) القضاء والعلم والتجربة ٢٥٠
- (٤٣) قناديل أقوال ١٣٨

- (٤٤) قوة الحجة ١٦٧
- (٤٥) القيلولة للقاضي ٣١٥
- (٤٦) قيمة الأناة ٢٢٧
- (٤٧) الكرامة وثمنها ١٠
- (٤٨) كلام الملوك ملوك الكلام ٢١٣
- (٤٩) مالونها ؟ ٩٦
- (٥٠) مال هذا إلا هذا ٢٨
- (٥١) مأزق ومخرج ١٥٦
- (٥٢) ما القصد من هذا ؟ ٢٣٤
- (٥٣) مرامي اللبابة ١٧٣
- (٥٤) المروّة ٣٠٣
- (٥٥) مقدرة الشاعر ٣١٢
- (٥٦) من أوابد الأصمعي ٤٥
- (٥٧) منطق ولا عدل ١٩١
- (٥٨) من يصدق هذا ؟ ٤٠

- (٥٩) نفاق وكذب ٨٧
- (٦٠) نور المعرفة ٢٦٦
- (٦١) هل الطبيعة تحكم ٢٩٩
- (٦٢) هل من دمة؟ ٢٢٢
- (٦٣) ولي الأمر والقضاء ١٦
- (٦٤) إشعاع الإيمان ٢٠٤

٤ - فهرس الأسماء

(أ)

- إبراهيم باشا : ٢٣٠
إبراهيم بن الجنيد ٢٨٠
إبراهيم بن عبدالله بن الحسن ٩٣ ، ٩٩
ابن أبي عتيق ٣٣٦
ابن حمدون ٤٤
القاضي ابن الدامغاني ٢٥٣
ابن الرومي ٣١٣
ابن زياد ٢٩٧ ، ٣٠٤
ابن العميد ٢٨٧
ابن الملاح ١١٤
ابن المنخل ١١٤
ابن هبيرة ٢٣١
أبو بحر صفوان بن إدريس ١١٤

(٣٤٨)

أبو بكر بن عياش	٣٢
أبو تمام	١٤٧ ، ١٤٩
أبو جعفر	٩٩
أبو حاتم	٢٩٦
أبو سعيد	٢٨٧
أبو سعيد السيرافي	٢٨٧
القاضي أبو الحسين بن عقبة	٢٦٢
أبو الحسن الأعرابي	١١٠
أبو الحسن علي بن إبراهيم بن هذيل	٢٠٩
أبو السائب المخزومي	١٣٦
أبو عبدالله النصري	٢٨٧
أبو عمرو بن العلاء	٤٩
أبو الفتح كشاجم	٣٣٢
أبو الفرج الأصفهاني	١٣١
أبو عبيدة	٢٩٦

أبو هريرة	٨٩
الأحنف بن قيس	٢٣٢
الأزهري	٢٤٥
أسلم	٣٢٨
الأصمعي	٢٩٣، ٢٩٢، ٢٩١، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥
الأعمش	٣٢
آل صباح بن خاقان المنقري	٢٩٦
آل المهلب	٢٩٨، ٢٩٦

(ب)

بنو إسرائيل	٩٦
بنو أمية	٢٥٧، ٢١٩
بنو تميم	٢٩٧
أبو عبادة الوليد بن عبيد البحر	١٤٩، ١٤٧
بنو رهم بن ناج	٢٠٠
بنو هاشم	٢١٩

بهرام جور ١٩٢

(ت)

التميري أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد ٢٨٧

(ج)

الجاحظ ٣٣٦

الجبرتي ١٢٩

قبيلة جديلة ٢٠٠

جرير ٣١٣

(ح)

حاتم الأصم ٢٨١، ٢٢٦، ٢٢٥

الحجاج ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥، ١٩٤، ١٧٧، ٥٠، ٤٩

٢٨٥، ٢٨٤، ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٦٠، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٣٠، ٢٢٩

حرثان ٢٠١

الحسن بن علي بن أبي طالب ٢٨٥، ٢٨٤، ١٧٨

الحسين بن علي بن أبي طالب ١٧٨

الحصري ٣٣٦

حماد بن إسحاق بن أبي بكر بن عباس ١٦٠

حمد الجاسر ٢٤٣

(خ)

خالد بن عبدالله ٢٩٧

خالد بن يزيد بن معاوية ١١٨

الخلفاء الراشدون ١٦٤

الخوارج ٢٥٧ ، ١٥٣

(ذ)

ذو الأصبع ٢٠٠

ذو الرقية ٢٩٧

(ر)

الراوندية ٨٤ ، ٩٣

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ٨٧ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ١٧٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨١ ، ٣٠٨

رملة بنت الزبير ١١٨

رملة بنت عبدالله بن خلف ١٣٢ ، ١٣١

(ز)

زياد ٢٩٧

زيد بن الحارث الياامي (الأيامي) ١٦٥

(س)

سارية ٣٢٩ ، ٣٢٨

سالم (مولى مسلمة بن عبدالله) ٢٤٩ ، ٢٤٨

سعيد بن مرة ١٧٦

سلم ١٠٠ ، ٩٩

سمية ٢٩٧

سوار بن عبد الله ١٧١

السيد بن أنس الأزدي ١٧٧

السيد الحميري ١٧١

(ش)

- شبيب ٢٩٧
الشرقي بن القطامي ٣٣٦
شريك ١٦٩
الشعبي ٢٩٧ ، ٢٣١
شقيق بن سليك ١٩٧ ، ١٩٥

(ص)

- الصابي ١٥٦
صفين ١٨٧
أبو جعفر الصيمري ٢٨٩ ، ٢٨٨

(ع)

- عائشة ٣٣٦
عائشة بنت طلحة ١٣٢ ، ١٣١
العباسيون ١٧٧ ، ٩٩
العباس بن عبدالمطلب ١٧٦ ، ١٧٥

عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ... ٩٨،

٩٩، ١٠٠

عبد العزيز الحصين ٢٣٠

عبد الله بن الحسن ٩٣

عبد الله بن خازم ٢٩٧

عبد الله بن الزبير ١١٨

عبد الله بن طاهر ٣٣٢

عبد الله بن مالك الخزاعي ٣٢١،

٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤

عبد الله بن وهب الراسبي ١٥٣

عبد الملك بن مروان ٦٣، ٦٤،

٩٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٥٧

عبد الله بن زياد بن ظيان ٢٩٧

عتاب بن إبراهيم ٨٨، ٨٩

العتابي ٣٠٥

٢٧٢	عتبة بن أبي سفيان
٢٠٠	قبيلة عدوان
١٣٥	عروة بن عبدالله
٢٧٩	العصر العباسي
١٨٧ ، ٨٥ ، ٤٤	علي بن أبي طالب
٩٩	العلويون
١٤٢ ، ٧٢ ، ٧٠	عمر بن الخطاب
٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٢٣٣	
١٨٧ ، ٦٢ ، ٥٩	عمرو بن العاص
٢٩٧ ، ١٩٠ ، ١٨٩	
٩٨	عمر بن عبدالعزيز
١٣١	عمر بن عبيدالله بن معمر
٢٥٨	عنيسة بن سعيد
٢٩٧	عترة
٢٩٧	عنزة

عوف بن محلم الشيباني ٢٣٢

عيسى بن موسى ١٦٩

(ف)

الفرزدق ٣١٣

(ق)

قس بن ساعدة ٢٣٧ ، ٢٣٥

قيس بن صاعد ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣

قيصر ٢١٦

(ك)

كسرى أبرويز ١٩٢

كسرى أنوشروان ٢١٥ ، ٨٢ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨

(م)

المأمون ١٩٣ ، ١٧٧

المتنبى ٣١٣

المثنى بن خارجة ٣٠٨

مجلة الداعي	٣٤
محمد الحنفية	١٧٧
محمد بن سليمان	٩٩
محمد بن عبدالله الأزدي	٦٧
محمد بن عبدالله بن الحسن	١٢٦
محمد بن علي بن الحسين	١٠٦، ١٠٤
محمد بن عبدالملك الزيات	٣٣١
مرجانة	٢٩٧
الشيخ مرغوب الرحمن	٣٨
مسلمة بن عبدالملك	٢٤٨، ٢٤٧
مصعب بن عبدالله بن الزبير	١٣٥، ٩٥
معاوية	٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤
	٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ١١٨، ١٧٦، ١٧٧
	١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠
معبد بن خالد الجدلي	١٩٩

المعتصم ٣٣١

المعري ٣١٣

المنصور ٩٤ ، ٩٣

المهدي ١٦٩ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧

..... ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠

المهلب بن أبي صفرة ١٧٧

المهلبى ٢٨٧

(ن)

نور عالم خليل الأمينى ٣٨

(هـ)

هارون الرشيد ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٢

الهيثم بن العريان ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩

(و)

وردان ١٨٨

(ي)

يزيد بن مسلم ١٩٦

يعقوب بن زيد التمار ٣١٠

يقطين بن موسى ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤

٤ - فهرس الأماكن

(أ)

٢٩٧..... أصفهان

٢٠٧..... شمال أفريقيا

٢٩٧..... ألمانيا

(ب)

٣٢١ ، ٣٢٠..... بغداد

(ج)

٢٩٧..... جلولا

(خ)

٢٩٧..... خراسان

(د)

٢٩٧..... دورق

(ش)

الشام ١٨٨ ، ١٦١ ، ١٥٧

(ص)

الصين ١٥٨

(ع)

العراق ٢٥٧ ، ٢٤٤ ، ١٥٧

العقيق ١٣٦

(ق)

قرطبة ٢٦٨

قندهار ٢٩٦

(ك)

الكوفة ١٨٨ ، ١٦١ ، ١٦٠

(م)

المدينة المنورة ٣٢٩ ، ١٦٤

مصر ١٨٨ ، ١٨٦

مكة ٢٤٤

أصفهان ٢٩٧

(ن)

نهاوند ٣٢٩

(هـ)

الهند ٢٩٦، ٢١٦، ١٥٨، ٣٨، ١٤

(ي)

اليمامة ٢٧٦

٥- فهرس المصادر

(أ)

١- أدب الكاتب، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٢- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، ١٩٦٨م.

(ت)

٣- تحفة العروس ونزهة النفوس، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد التيجاني.

٤- التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، تحقيق:

إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر،
بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٤م.

٥- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون،
لخليل بن أبيك الصفدي، تحقيق: محمد
أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة
العصرية.

(ج)

٦- المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح
الشافعي، لأبي الفرج المعافى بن زكريا
النهرواني الحريري، تحقيق: د. إحسان
عباس، عالم الكتب، الطبعة الأولى:
١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٧- جمع الجواهر في الملح والنوادر، لأبي
إسحاق إبراهيم بن علي الحصري
القيرواني، تحقيق: علي محمد البجاوي،

الطبعة الثانية ١٩٥٣م، دار الجيل،
بيروت.

(ز)

٨- زاد المسافر، وغرة محيا الأدب السافر،
لأبي بحر صفوان بن إدريس التجبي
المرسي، تحقيق: عبدالقادر محداد،
بيروت: ١٩٨٠م.

٩- زهرة الآداب، وثمر الألباب، لأبي
إسحاق الحصري القيرواني، عناية: د.
زكي مبارك، الطبعة الثانية، المكتبة
الرحمانية بمصر.

(ع)

١٠- عين الأدب والسياسة، وزين الحسب
والرئاسة، لأبي الحسن علي بن
عبدالرحمن بن هذيل، دار الكتب

العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
١١- عيون الأخبار، لأبي محمد عبدالله بن
مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب
العلمية، بيروت.

(ك)

١٢- الكنز المدفون والفلك المشحون.
١٣- المختار من نواذر الأخبار، لشمس الدين
محمد بن أحمد المقري، دار ابن حزم،
الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
١٤- المصون في الأدب، لأبي أحمد الحسن بن
عبدالله العسكري، تحقيق: عبدالسلام
هارون، سلسلة التراث العربي، الكويت:
١٩٦٠م.

١٥- الموشى (أو الظرف والظرفاء)، لأبي
الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى

الوشاء، دار صادر، بيروت.

١٦- الهفوات النادرة، لغرس لنعمة أبي

الحسن محمد بن هلال الصابي، تحقيق:

د. صالح الأشر، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٦- فهرس أبيات الشعر

(ب)

- ١- وفكرت في شيب الفتى وشبابه
فأيقنت أن الحق للشيب واجب: ٣٣٣
- ٢- إن قلت في شيء نعم فأتمه
فإن نعم دين على الحرّ واجب: ٣١٠
- ٣- حانيك من يجني عليك وقد
تعدي الصحاح مبارك الجرب: ١٩٥
- ٤- ذهب الشباب فما له من عودة
وأتى المشيب فأين منه المهرب: ٣٣٠
- ٥- إن كان أهلك يمنعونك رغبة
عني فأهلي بي أعزّ وأرغب: ١٣٧

(ح)

٦- وإِنَّمَا لِلنَّاسِ مَنَّا

حسن خلق ومزاج: ٢١٢

(س)

٧- البَيت لا أبرح من بابِه

حتى يموت الرجس من جلسي: ٥٦

(ض)

٨- عذير الحي من عدوا

ن كانوا حية الوادي: ٢٠١

(ع)

٩- لا أدفع ابن العم يمشي على شفاً

وإن بلغتني من أذاه الجنادع: ٦٧

(ل)

١٠- صَبَر النفس عند كل مُلَمّ

إن في الصبر حيلة المحتال: ٤٩

١١- أنت الفتى كل الفتى

لو كنت تفعل ما تقول: ٣٠٩

(م)

١٢- سقط الثقل من السفينة في الدجى

فبكى عليه رفاقه وترحموا: ٥٤

١٣- لا تقولن إذا لم ترد

أن يتم الوعد في شيء نعم: ٣١٠

(ن)

١٤- يابن الذي دان له المشرقان

وألبس العدل به المغربان: ٣٣٢

١٥- بلاء ليس يعدله بلاء

عداوة غير ذي حسب ودين: ٣١٤

١٦- وعائب عابني لشيبى

لم يعدلما ألمّ وقته: ٣٣١

١٧- إن التي زعمت فؤادك ملّها

خلقت هواك كما خلقت هوى لها: ١٣٦

١٨- يا باري القوس برياً ليس يصلحه

لا تظلم القوس إعط القوس باريها: ٢٨٨

نبذة عن المؤلف

- * ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- * جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- * حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١م.
- * حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- * عُيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- * عُيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- * دَرَس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- * انتقل من الجامعة رئيساً لديوان المراقبة لمدة عامين تقريباً، ثم وزيراً للصحة لمدة عامين تقريباً، ثم وزيراً للمعارف لمدة ٢١ عاماً.
- * عُيِّن قِي ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء.

كتب صدرت للمؤلف

- * نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب: «الشيخ أحمد المنقور في التاريخ».
- * أَلَف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «عثمان بن بشر».
- * أَلَف عام ١٣٩٥هـ كتيب: «في طرق البحث».
- * طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغتين العربية والإنجليزية.
- * حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره.
- * حقق كتاب: «حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- * من حطب الليل: الطبعة الثانية عام ١٣٩٨هـ، والثالثة عام ١٤٢٥هـ.
- * أَلَف عام ١٤١٢هـ / ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله ابن عثيمين».
- * أَلَف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب: «أي بُني» في خمسة أجزاء.
- * أَلَف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب: «إطلالة على التراث» سبعة عشر جزءاً.
- * أَلَف عام ١٤١٨هـ كتاب: «يوم وملك».
- * أَلَف منذ عام ١٤١٩هـ وحتى ١٤٢٧هـ ثلاثة أجزاء من كتاب: «ملء السلة من ثمر المجلة».
- * أَلَف عام ١٤٢٤هـ / ٢٠٠١م حديث الركبتين.
- * أَلَف عام ١٤٢٤هـ كتاب: «لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية».
- * أَلَف عام ١٤٢٥هـ كتاب: «دمعة حرى».
- * أَلَف عامي ١٤٢٦ / ١٤٢٧هـ ستة أجزاء من كتاب: «وسم على أديم الزمن - لمحات من الذكريات».